فوتون

رواية من أدب التشويق و الخيال

د . غفار محمد

فوتون ..

إهداء :

إلى أولئك الذين يُصغون للكلمات كما لو كانت نبوءات،
ويؤمنون أن في كل جملة مأوى، وفي كل قصة خلاص ..
إلى عشّاق الأدب الذين يمنحون اللغة حياةً أخرى..
وإلى مشجعي الكُتّاب الذين يرون في الحبر نورًا، لا حرفة
أكتب هذه الصفحات، لا لتُفهم... بل لتُحسّ
أنتم النبض الذي يجعل للكلمة طنينًا أبعد من الورق،
وللحكاية عمرًا أطول من راويها ..

فوتون ..

أنت هنا في عالم الخيال، وكل تشابه مع الواقع في الأسماء وكثير من الأماكن هو محض صدفة ..

فوتون ..

المحتويات :

- عندما أبصر الفوتون الضوء ..
  - مارد الفانوس ..
- ثقب أسود ..
  - كوكبة من المشتبهين ..
- الكون ثنائي القطب ..
  - النفق الكمي ..
- الفقاعة الباردة ..
  - ندبة الذاكرة ..
- شهاب الحقيقة ..
  - فرانكشتاين ..
- النهاية ؟!

الفصل الأول

عندما أبصر الفوتون الضوء

الولايات المتحدة الأمريكية

كاليفورنيا / سان دييغو ..

2033 م ..

في الخامسة والعشرين من عمره فقط ، **كيفين أستور** شاب يشبه في تكوينه معلقة جاهلية عظيمة تنتظر بترقب أن تأخذ لنفسها مكاناً على جدران الكعبة ..

ملامحه هادئة كخشوع قديس، شعره بني مع خصل ترابية تنساب فوق جبينه، وعينان البنيتان حالِمتان كحبات القهوة المحمصة لهما وقع يشبه السحر. من يلتقيه لأول مرة يشعر أنّ في نظرته قوة خفية، كأنّها موجة تُغرقك في بحر صامت ثم تجعلك ترى العالم من زاويته هو .. لم يكن صاخباً ولا متكلماً بكثرة، لكنه حين يقرر أن يتكلم، يترك في النفوس يقيناً لا يتزعزع ..

ولد في **سان دييغو**، مدينة الشمس والمحيط، مدينة الضجيج الجميل والحياة المترفة. لكنه لم يعرف طفولة طبيعية كتلك التي عاشها أقرانه. ففي سن مبكرة، اكتشف الأطباء صدفة أنّ قلبه يحمل سراً ثقيلاً على طفل بعمره : **اعتلال العضلة القلبية الضُخامي**. مرضٌ جعل جسده مقيداً في زنزانة ، فأي حركة غير محسوبة قد تكتب على قلبه أن يصمت للأبد ، لذا منع من الجري خلف الكرة أو الصراخ في ملاعب المدرسة ، و بينما كان أقرانه يركضون ضاحكين تحت السماء، كان هو حبيس غرفته، يستمع إلى دقات قلبه كأنها دقات قنبلة موقوتة لا يدري في أي موعد ستنفجر فيه ، فألقى ذلك بلا شك ظلاله النفسية السلبية عليه ..

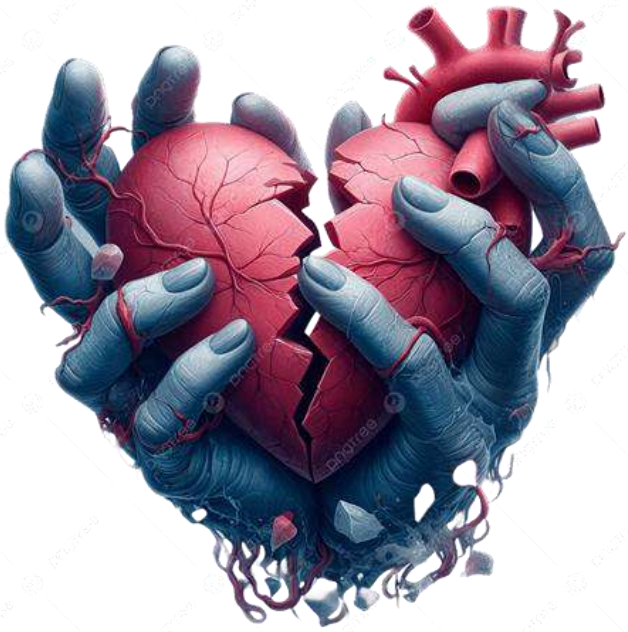

لكن الغرفة التي أرادها القدر سجناً لكيفين ، تحولت مع الوقت إلى نافذة أخرى على الكون الرحب .. هناك وجد **الحاسوب** ، شريكه الوحيد في عزلته الصوفية تلك .. في البداية رآه مجرد جهاز بارد يخاطبه ، يبوح له بمخاوفه و أحلامه ، فلا يجد منه رداً سوى صمتٍ حيادي مربك ، حتى

أدرك أن عليه تعلم لغته أولاً كي يبث المعنى في حوارهما ، فصار صديقه الأوفى منذ ذلك الحين .. جلس أمامه ساعاتٍ طويلة، يتعلم أسراره من برمجة و انترنت مشرق أو مظلم لا فرق ، كما يتعلم رحالة أبجدية أرضٍ جديدة. لم يحتج إلى مُعلم، بل إلى فضول وإصرار. و هكذا غدت البرمجة بالنسبة له لغة خاصة، كلمة سر تفتح له أبواب المغارة إلى فضاء ساحر و إمكانيات لا تنتهي ..

في مراهقته ، و بينما كان الآخرون يكتشفون الشوارع والمغامرات العاطفية الأولى، كان هو يكتشف المجرات الرقمية. صنع برامج ذكية و نافعة، باع بعضها لشركات كبيرة، وجمع مالاً مكّنه من الاستقلال مبكراً عن عائلته. لقد حرره ذكاؤه من القيود التي فرضها جسده عليه. ومع كل برنامج ينجزه، كان يشعر أنّه ينتقم من المرض بصمت، يثبت أنّ القلب العليل لا يمنع العقل من التحليق .. بل يثبت ما هو أهم من ذلك أن ضخامة قلبه ليست استثناءً على جسده ، إذ لديه عقل متضخم مذهل بدوره ..

لكيفين أخ وحيد، **هنري**، يكبره بثلاث سنوات ويعمل محامياً ناجحاً. هنري يمثّل الأرض بثباتها وقوانينها الصارمة، أما كيفين فيمثل السماء المفتوحة واحتمالاتها التي لا تنتهي.
ورغم أنّ العلاقة بينهما بقيت قوية، إلا أنّ كلاً منهما سار في درب مختلف : هنري يواجه الخصوم في المحاكم، وكيفين يواجه الفراغ والصمت بأكواد تلمع على الشاشة.

ثم جاءت اللحظة التي غيرت كل شيء : ولادة (**فوتون**)..
إنجاز مذهل كثمرة سنوات من العزلة والشغف. تطبيق ذكاء اصطناعي يفوق كل ما سبقه إلى السوق أو عرفه البشر من قبل .. لم يكن مجرد آلة تولّد كلمات أو صوراً كغيره ، بل كان قادراً على أن يشعر، أو على الأقل يوهمك أنه يشعر.
يستطيع أن يكتب بلا أدنى خطأ ، أن يخلق عالماً افتراضياً يلامس حواسك، أن يتحدث إليك وكأنه إنسان من لحم و دم، بل بلمسة عاطفية لا تملك إلا أن تصدقها ..و اختار كيفين المذنب شعاراً له ..

عرضت عليه أكبر الشركات تبني هذا الاكتشاف و وعدته بأرباح خيالية ، لكنه رفض. لم يكن الأمر كبرياءً فقط، بل قناعة راسخة : أن ما صنعه ليس مجرد منتج، بل قوة. وكان يؤمن أنّه قادر على استخدام تطبيق فوتون بنفسه، لا ليُثري

جيوب الآخرين، بل ليبني مستقبله وفقاً لرغبته. لم يكن يخشى سلوك طرق شرعية أو حتى مظلمة فهو في أعماقه ناقم على الحياة كما على البشر أيضاً على خلفية عجزه الجسدي ، و يعرف جيداً أنّ تطبيقه قادر على إخفاء أي أثر في عملياته المشبوهة ، وكأنه ظلّ لا يترك وراءه شيئاً .. و الأهم أن فوتون بعبقريته سيمنحه خيارات خلاقة كثيرة لاستثمار ابتكاره و طرقاً لا تخطر على البال للانتفاع منه ..

في أعماقه، كان يعيش صراعاً خفياً. قلبه الضعيف يذكّره بالموت كل يوم، لكن عقله يفتح له باباً نحو الخلود. كان يعرف أنّه يقف على حافة اختيارٍ مصيري : أن يجعل من فوتون هديته للعالم كي يتذكره الجميع بالخير، أو أن يحوّله إلى سرٍ مظلم يغيّر قواعد اللعبة من خلف الستار. وبين هذين الخيارين، كان يمشي بخطوات ثابتة، وعيناه تحملان تلك النظرة الساحرة التي تجعل كل من يراه يتيقن أنّ هذا الشاب - رغم ضعفه الجسدي – قادر على أن يكتب فصلاً جديداً في حكاية البشر والآلة.

****

كان المساء ثقيلاً في سان دييغو. حرارة الصيف لم تنكسر بعد، والهواء المشبع بالملح القادم من المحيط بدا كأنه يضغط على صدر المدينة كما يضغط المرض على قلب كيفين منذ طفولته. جلس أمام مكتبه الصغير، يراقب شاشة الحاسوب التي تضيء الغرفة بوميضٍ أزرق، فيما فوتون ينساب أمامه كسيل من الاحتمالات اللامتناهية.

رنّ الهاتف .. الرقم مجهول، لكن الصوت الذي انبثق من

السماعة لم يكن عادياً. كان صوتاً عميقاً، واثقاً، يخص رجلاً يعرف ما يريد :

= مساء الخير سيد أستور، أنا **خوان غارسيا** ..

الاسم وحده كان كافياً ليوقظ في ذهنه صور مقالاتٍ قرأها عن إمبراطور التكنولوجيا، الرجل الذي تقف وراءه **شركة أوريون** ، تلك التي تحرك نصف أسواق البرمجيات في العالم .

ابتسم كيفين ابتسامة صغيرة لم يرها أحد، ثم أجاب بهدوئه المعتاد :

= شرف لي سماع صوتك، سيد غارسيا. ما الذي يدفع رجلاً مهماً مثلك للاتصال بي شخصياً ؟

ضحك خوان بخفة من ادعاء كيفين الجهل ، ثم قال بنبرة لا تخلو من جدية :

= لا داعٍ للمجاملات سيد كيفين. لندخل مباشرة في صلب الموضوع .. بلغتني أخبار مثيرة للفضول عن تطبيقك الجديد فوتون .. قيل لي أنه ليس مجرد برنامج ، بل خطوة أبعد من أي ذكاء اصطناعي عرفناه حتى الآن .. و برامجك السابقة تمنحك مصداقية كبرى .. لذا فأنا راغب بشدة بشرائه.

ساد صمت قصير عبر الأثير، كأن الزمن نفسه توقف لحظة، قبل أن يتابع الرجل :

= أريد أن أعقد معك صفقة مغرية للغاية .. مئة مليون دولار، نقداً، وبلا تأجيل. حتى قبل أن يقتحم تطبيقك الأسواق

و يثبت كفاءته.

كان العرض كصفعة نقدية ، لكنه لم يهزّ كيفين. جلس مستقراً على كرسيه، عيناه تحدقان في الظلام خلف الشاشة أكثر مما تحدقان في الأرقام التي قُذفت في وجهه. حين تكلم، جاء صوته هادئاً، ثابتاً، بلا رعشة :

= سيد غارسيا، عرضك سخي بلا شك و يركع أمامه كثيرون ، لكنه بالنسبة لي غير مغرٍ ولا مقبول.

توقّف لبرهة، ثم أضاف وهو يختار كلماته كما يختار جراحٌ مشرطه :

= فوتون سيجلب لي هذا المبلغ شهرياً، وربما أسبوعياً .. فلماذا أبيع بحراً كاملاً مقابل كأس ماء؟

ساد صمت كثيف للحظات، ثم جاء ردّ غارسيا على شكل ضحكة قصيرة، مليئة بالسخرية، أشبه بصفير حاد يخترق الأذن :

= شاب في الخامسة والعشرين يتحدث عن مئة مليون كأنها مبلغ عادي ! إنك غارق في أحلامك يا أستور.

كان صوته يقطر استهزاءً، لكن كيفين لم يتأثر. بل إن ملامحه ازدادت هدوءاً، وعيناه البنيتان حملتا ذلك البريق المغناطيسي الذي طالما أربك الآخرين. غير أن غارسيا لم يمنحه وقتاً للرد، بل أكمل بنبرة حاسمة :

= اسمعني جيداً سيد كيفين .. أنا أعطيك الفرصة الآن، لكن حين تعود إليّ متوسلاً لاحقاً، بعد أن تكتشف أن العالم أكبر بكثير من أحلامك أو بالأحرى أوهامك ، عندها سأغلق الباب في وجهك .. إما الآن... أو أبداً ..

خيم صمت الكلمات المنذرة على الأجواء ، ثم هشمه كيفين بكلمات غير متوقعة هاربة من صقيع سيبيريا :

= إذن أبداً سيد غارسيا .. حظاً أوفر مع مبرمجين آخرين ..

ساد صمت أثقل بعدها، و كأنما كلمات كيفين هزت عرش ثقة غارسيا بنفسه .. ثم قال أخيراً بلهجة مبطنة بتهديد :

= لقد أخطأت خطأ فادحاً بقرارك هذا ، و ستثبت لك الأيام ما كنت جاهلاً يا صديقي .. الفرصة تمر كالسحابة فإن لم تمطر يبست الآمال و جفت الجيوب .. تذكر أنك في سوق لا يرحم أحداً و الحسابات الخاطئة لها نتائج وخيمة ،إلى اللقاء .

و أنهى المكالمة.

بقي كيفين ممسكاً بالهاتف بضع ثوانٍ بعد أن انقطع الصوت،

وكأنه يصغي إلى صدى التهديد يذوب في صمت الغرفة. ثم وضعه بهدوء على الطاولة، وأطلق زفرة طويلة. لم يشعر بالندم، بل بشيء يشبه التحدي. لقد علم في تلك اللحظة أنّ الطريق أمامه لن يكون سهلاً، وأن فوتون لم يعد مجرد مشروع خاص، بل ساحة معركة بين شابٍ يحلم رغم ضعفه، ورجالٍ يملكون الأرض والمال والنفوذ.

في الخارج، كانت حرارة الليل لا تزال معلّقة فوق المدينة، أما في الداخل فقد أشعل كيفين في أعماقه ناراً أخرى، أشد سخونة، لا تُطفئها مئة مليون ولا ألف.

****

في تلك الليلة الثقيلة، حين أطفأ كيفين أنوار مكتبه واكتفى بوميض هاتفه قرب السرير محاولاً عقد هدنة مع الأرق اليومي ، وصلت الرسالة التي بات يتوقعها قبل أن يقرأها : رسالة **كارمن رولاند**.

كان الأمر أشبه بطقس مسائي لا يتغير. رسائلها تتأرجح بين أقصى طرفين : اعترافات حب مشتعلة تفيض بالعاطفة حتى الاختناق، ثم فجأة كلمات تهديد حادة، كأنها خناجر مسمومة معلقة فوق رقبته .. لم يعد يعرف إن كانت تلك الفتاة عاشقة أم سجّانة، مخلصة أم مجنون متربص به .. كل ما عرفه أنّها تحولت إلى حضور يومي خانق لا يستطيع تجاوزه.

لحظات و أرسلت له رسالة تهديد جديدة أعادته إلى لحظات لقائهما الأولى .. كان ذلك قبل بضعة أشهر ، في بارٍ صغير بوسط المدينة، حين قرر أن يمنح نفسه نافذة قصيرة في جدار عزلته المعتادة .. هناك التقاها، امرأة مرحة، تضحك بصوتٍ صادق، وتلقي النكات ببساطة تأسر من حولها. بدا له أنها نسمة خفيفة في حياة مليئة بالرموز و الأكواد الصامتة. جلسا طويلاً، تحدثا عن الموسيقى، عن أفلام قديمة، وعن غرابة العيش في مدينة مثل سان دييغو. في تلك الليلة، لم يشك لحظة أن خلف هذه الخفة تكمن أعماق مظلمة، وأنه يضع قدمه الأولى في فخ سيصعب عليه أن يخرج منه.

مع مرور الأيام، توطدت صداقتهما، لكن الصداقة سرعان ما تحولت إلى شيء آخر. أدرك كيفين أن كارمن لا تفكر بعفوية كما بدت أول مرة، بل تحمل شغفاً مَرَضياً نحوه.

حاول أن يوضح لها أنه ليس مستعداً للحب، لا بسب انشغاله المهني وحده، بل لأن قلبه الضعيف لا يطيق تقلب العواطف. غير أنها لم تفهم أو لم تُرِد أن تفهم. كلما حاول أن يرسم حدوداً، مزقتها بعنف .. كلما ابتعد خطوة، لحقت به بعشر. و هي تقلب عشرات الأقنعة بعشرات الشخصيات على وجهها.

والآن، وهو يقرأ رسالتها الجديدة، أدرك أن الأمور بلغت الذروة. كلماتها بدأت بإعلان حب مبالغ فيه، ثم انقلبت فجأة إلى تهديد صريح : *(إن ابتعدت عني، ستندم ... لن أدعك تختفي عن حياتي .. لن يفرّق بيننا إلا الموت)* ..

شعر كيفين ببرودة تتسلل إلى صدره رغم حر الصيف. لم يعد يرد على مكالماتها ولا رسائلها منذ أسابيع، لكنه كان

يعرف أن صمته يزيدها اشتعالاً هستريائياً ، يجعلها أكثر خطورة مما يظن.

أعاد الهاتف إلى الطاولة، أغمض عينيه محاولاً أن يستسلم للنوم، لكن صدى كلماتها ظل يرنّ داخله مثل إنذار غامض. لقد دخل متاهة لم يخترها، متاهة شكلتها عقلية سايكوباثية ، وهو يعلم الآن أنّ الهروب منها لن يكون سهلاً ... وربما لن يكون ممكناً.

الفصل الثاني

مارد الفانوس

اليابان / كيوتو ..

قبلها بأربع سنوات .. 2029 م ..

في أقصى شمال كيوتو، حيث تتعانق أشجار القيقب الحمراء مع حجارة المعابد العتيقة، نشأ البروفيسور الياباني **هيروشي تاكامورا** .. رجل يكمل اليوم عقده السادس ، نحيل القامة، ينساب شعره الأبيض كسيل من ثلوج جبل فوجي فوق كتفيه، وعيناه تشعّان بلمعة حكيمٍ رأى من العمر ما يكفي ليعرف أن العلم وحده لا يكفي لفهم العالم .. ملامحه هادئة، تكاد تكون أقرب إلى وجه راهب بوذي في لحظة تأمل، لكن ابتسامته الخفيفة تحمل دفء أبٍ عطوف أكثر مما تحمل وقار أستاذ صارم .. فيها من نقاء الكامي أكثر من تعقيد الجسد ..

ولد في مدينة كيوتو القديمة، مدينة الألف معبد، وهناك تشبّع بروح الجمال الياباني : البساطة، الصمت، والانسجام مع ما

لا يُرى أكثر مما يُرى. طباعه مزيج من الحزم والرحمة، يُعرف عنه أنه يحدّق طويلاً قبل أن يجيب، كأنّ كل كلمة يزنها بميزان الذهب، حتى يخرج صوته أخيراً كنسمة حذرة .. هادئة، عميقة، لا يمكن نسيانها.

منذ طفولته، كان هيروشي مولعاً بالأشياء التي تُفكّر. لم يكن يلعب بالدمى، بل كان يفتحها ليرى ما بداخلها. حين بلغ السابعة ، صنع أول دائرة كهربائية من أسلاك متهالكة وبطاريات قديمة، فانبهرت والدته حين أضاء مصباحاً صغيراً في غرفة مظلمة .. ومنذ تلك اللحظة، لم يترك الضوءُ يده .. شخّص حالته طبيب نفسي صديق للعائلة خلال زيارته لهم بأنه مصاب **بطيف خفيف من التوحد** لا يلوح إلا للعين الخبيرة .. قال : (لن يؤثر ذلك على مستقبله ، بل على الأرجح سيجعل نجمه يسطع في مجال العلوم .. لكنه حذر من أثر جانبي وحيد لحالته وهو ضعف الارتباط العاطفي ، كونه يحتاج إلى ذكاء اجتماعي لا يملكه مرضى التوحد عادةً ..)

و هذا ما كان بالفعل .. كبر هيروشي وهو يقرأ عن الحواسيب، ثم عن الذكاء الاصطناعي القادم كحلم البشرية المنتظر، فشعر أن في الآلات سرّاً شبيهاً بالوعي، وأن المستقبل سيفتح أبواباً لم يطرقها العقل البشري من قبل .. درس في طوكيو ثم في كامبريدج، وعاد إلى اليابان ثانيةً فهو متيم ببلده و ثقافتها ، حاملاً رؤية مغايرة : أن التكنولوجيا ليست مجرد أدوات، بل مرايا تعكس حقيقتنا، وربما وحوشاً إذا أطلقناها بلا ضمير. عشقُه للتكنولوجيا كان نقياً، لكنه منذ

شبابه كان يرافقه سؤال مُقلق : هل يمكن أن نصنع عقلاً بلا قلب ؟ و ما عواقب ذلك؟

و نبوءة ذاك الطبيب النفسي اكتملت عندما توالت سنين حياة هيروشي بنجاحات علمية مذهلة لكن دون أن يتزوج ..

بعد أسبوع ، سيقف هيروشي في مدرج جامعة كيوتو الكبير كمحاضر .. حيث سيتناول المخاطر الصامتة للذكاء الاصطناعي .. لم يكن يسعى إلى ترهيب الطلاب والباحثين بحقائق جافة ، بل إلى فتح أعينهم على أن ما يُبنى في المختبرات اليوم قد يتحول غداً إلى قوى تفوق البشر، ولا تعرف معنى الرحمة ولا الخوف ..

****

يوم المحاضرة ..

حلَّ اليوم المنتظر، وتزيّنت جامعة كيوتو بوجوه متلهفة، بعضها جاء شغفاً بالعلم وبعضها مدفوعاً بفضول غامض لمعرفة ما يقوله العالِم الذي شاخ وهو يراقب صعود الذكاء الاصطناعي.

في قلب الحرم الجامعي ارتفعت القاعة الكبرى كهيكل معماري غريب و حديث من الزجاج والحديد المتآلفان ، تتدفق إليها جموع الطلبة والأساتذة والصحفيين، حتى غدت أشبه بمرآة كروية غريبة تعكس الترقب الكامن في النفوس.. المقاعد المرتفعة على شكل مدرج التفت حول المنصة كجناحي ملاك تحتضنان مساحة الضوء حيث سيقف المتحدث.

حين دقّت الساعة، خفتت الأصوات شيئاً فشيئاً، وتحوّل الضجيج إلى صمت مشدود. دخل البروفيسور هيروشي بخطوات موزونة، يحمل بيده أوراقاً قليلة مرتبة كأنها لا تريد أن تزاحم أفكاره، يعلو محيّاه مزيج من السكينة والصرامة. كانت ملامحه التي نحتها العمر تبدو أكثر وضوحاً تحت الأضواء البيضاء : جبين عالٍ تحرسه خطوط

الحكمة، نظارات رقيقة تلتقط بريق العيون، ووجه نحيل يشبه وجوه الحكماء في لوحات الحبر اليابانية.

وقف أمام المنصة متأملاً الجمع، ثم انحنى بخفة تقليدية توارثها من ثقافة الاحترام العميق. لا ابتسامة مبالغ فيها، ولا تكلّف؛ فقط حضور هادئ يفرض نفسه مثل ماء ينساب في صمت لكنه يشقّ طريقه بين الصخور. رفع رأسه قليلاً، وتوقفت عيناه عند الجموع الممتدة أمامه، فتبدّى كأنه لا ينظر إلى أشخاص منفردين، بل إلى مستقبل بأكمله يجلس متجسداً أمامه .. حيا الجمع بكلمات ترحيبية غير تقليدية ثم دخل مباشرة بصلب موضوع محاضرته :

= مما لا شك فيه أعزائي أنكم جميعاً على دراية بمفهوم الذكاء الاصطناعي الذي بدأ منذ سنوات يتسلّق على جدران كافة مجالات الحياة و يغزوها بتسارع رهيب ، كونه يقدم إمكانيات مذهلة متنوعة فيها تختزل الوقت ، الجهد و التكاليف .. لكن هذا هو الوجه المضيء من القمر في الحكاية ، فماذا عن الجانب الآخر المظلم كما يقال ؟ هل هنالك وجه مخيف للذكاء الاصطناعي تحت قناع الإمكانيات الفذّة هذه ؟

هذا هو صلب محاضرتنا الجديدة و الخطيرة اليوم ، و التي يطيب لي أن أعنونها (**مارد الفانوس**) ، و سنفهم سبب ذلك لاحقاً ..

ابتسم بلطف و قال :

= ستكون محاضرة مقتضبة و غير مملة فلا تقلقوا .. أما الآن فدعونا نبدأ بسؤال محوري و مقلق يتعلق بها :

(صحيح أنّ الذكاء الاصطناعي ثورة علميّة مذهلة و نقلة نوعيّة في تاريخ البشرية ربما تتفوّق بأهميتها و حجم تأثيرها على أي ثورة أخرى ، لكن هل الأحلام الوردية التي يعدنا بها و بدأ بتحقيق بعضها بالفعل ، ستبقى على ما هي عليه إلى الأبد ، أم أنها قد تتحول إلى كوابيس مرعبة لن نصحو منها ؟)

صمت قليلاً ثم تابع بنبرة تقطر جدية :

= إنّ الجواب المبدئي و الوجيز على هذا السؤال و الذي يحمل تهديدات حقيقية في طياته هو :

*(الذكاء الاصطناعي هو كما يشير اسمه عبارة عن **ذكاء** ، و هنا تكمن خطورته ، فإن بلغ هذا الذكاء درجة تفوق ذكاء صانعه - الإنسان – فعندها سيتحول هذا الإنسان من حاكم إلى محكوم ، أو من سجّان إلى سجين لا وسيلة أمامه للفرار و تنتظره المقصلة كإعدام للجنس البشري)*

هذا جواب خطير ، مرعب و مقلق .. أعلم ذلك .. لكن لماذا نحذّر من الذكاء الاصطناعي إلى هذه الدرجة ؟ ما هي المخاطر المنطوي عليها و ما احتمال حدوثها ؟

هذا ما سنحاول الإجابة عليه خلال الدقائق التالية عبر مقاربة مفهوم الذكاء الاصطناعي من ثلاث محاور هامة للغاية :

- نبذة عن نشوء الذكاء الاصطناعي ..

- تطبيقات الذكاء الاصطناعي ..

- مخاطر الذكاء الاصطناعي المرعبة ..

فهيا بنا نبحر معاً في محيط هذا المفهوم العجيب ، الشيّق و الخطير ..

الصمت ألقى بظلاله على المدرج مجبولاً بلمسة فضول و حماسة ، ثم مزقه هيروشي مجدداً بصوت حاد أشبه بنصل ساموراي :

= نبدأ إذن بنبذة عن نشوء الذكاء الاصطناعي .. في الحقيقة قصة الذكاء الاصطناعي تبدأ من مسرحيّة قديمة للكاتب المسرحي الإيرلندي الساخر **جورج برنارد شو**، عام **1913** بعنوان (**بيجماليون**) ..

تحكي هذه المسرحية قصة البروفيسور **هنري هيغينز**، الأستاذ في علم الصوتيات، الذي أصرّ على جعل فتاة فقيرة تدعى **إليزا دوليتل** ، تتحول إلى سيدة من الطبقة الأرستقراطية في بريطانيا .. كانت إليزا تبيع الورود في الشوارع كفرد من عامة الناس، كلامها سوقي، و يقسم كل من يراها بأنه يستحيل عليها أن تتقن فن التحدث مع أهل الطبقة الأرستقراطية بأي طريقة .. و بسبب ذلك يدخل البروفسور هيغينز في تحدٍّ مع صديق له ليبرهن على قدرته جعل إليزا تتقمص شخصية دوقة في حفل، و قد اعتمد

هيغينز في ذلك على استراتيجية نفسية تجعل إليزا تعيد صياغة مفردات الكلام الموجه لها، فتخاطب الناس بعبارات ابتكرتها من كلامهم معها ، و كما تلاحظون فهذا هو المفهوم الذي يمكن البناء عليه للتعامل مع الآلة ، إعادة صياغة مدخلات البشر لتقديمها لهم على شكل مخرجات من وحي ما أدخلوه ..

و بالفعل كسب هيغينز التحدّي و أتقنت إليزا اللعبة فلم يشكّ بها أحد في الحفل و ظنها الجميع شخصية أرستقراطية مرموقة !!..

و من وحي قصة هذه المسرحية التي حملت في طياتها جنين الذكاء الاصطناعي و طريقة عمله ، ابتكر عالم الحاسوب الألماني، **جوزيف وايزنباوم**، في معهد ماساتشوستس

للتكنولوجيا عام **1966** أول تقنية تسمح بمحادثة بين البشر و الآلة كبرنامج أطلق عليه اسم (**إليزا**) تيمناً ببطلة مسرحية برنارد شو ، و يعتبر هذا البرنامج أول روبوت محادثة يعمل بالذكاء الاصطناعي، و حينها استخدم للقيام بمهمة معالج نفسي وهمي، يحاكي البشر ويتفاعل معهم ، تماماً كما يفعل الذكاء الاصطناعي التوليدي هذه الايام ..

المفارقة في الحكاية أنّ العالم وايزنباوم، الذي اخترع برنامج إليزا، سعى من خلاله لإثبات مدى سطحية المحادثة بين الإنسان و الآلة ، لكن النتائج جاءت معاكسة تماماً لهدفه هذا ، فقد انبهر الناس بما توصل إليه وايزنباوم، وانخرطوا في محادثات طويلة مع الآلة من خلال برنامج قادر فقط على جعل الآلة تعكس كلمات المستخدمين و تحاكيهم بها لا أكثر

كان وايزنباوم منزعجاً جداً من ردّ فعل الناس المعجبين بالبرنامج لدرجة أنه أمضى بقية حياته يحذّر من مخاطر ، الذكاء الاصطناعي على البشر .. و سنرى بعد قليل بأنه كان محقّاً في ذلك ..

لكن هذه لم تكن البداية في تاريخ الذكاء الاصطناعي ، بل تمّ طرح مفهومه أول مرة قبل بضع سنوات من برنامج إليزا حيث ولدت الفكرة من أطروحة فلسفية معقدة تقول مقدمتها : (**هل تستطيع الآلة التفكير؟**) و الأطروحة هذه قدمها عالم الرياضيات الإنكليزي، **آلان تورينغ**، عام **1950** ..

و في عام **1956** استضاف عالم الحاسوب الأميركي، **مارفن مينسكي** ، وأستاذ الرياضيات الأميركي، **جون مكارثي**

محاضرة لكلية دارتموث حول الذكاء الاصطناعي في الولايات المتحدة الأمريكية ، و فيه صيغت عبارة (الذكاء الاصطناعي) لأول مرة في التاريخ .. هؤلاء العلماء أطلق عليهم (**الآباء المؤسسون للذكاء الاصطناعي**) و حددوا له خمسة مجالات عملية : **البحث، التعرف على الأنماط ، التخطيط ، التعلم و الاستقراء ..**

و منذ ذلك الوقت و الذكاء الاصطناعي يقفز قفزات سريعة و نوعية جبارة في كافّة مجالات الحياة مما يقودنا إلى المحور الثاني من محاضرتنا و هو تطبيقات الذكاء الاصطناعي ..

كان الجمهور مستمتعاً للغاية بمعلومات البروفيسور الغريبة تلك ، إذ بدا هو نفسه كتطبيق ذكاء اصطناعي بين أيديهم يزودهم بالمعلومات المتنوعة ، لكن بطريقة مشوقة و مفعمة بالحياة و الإحساس .. ابتسم لهم ثم أردف :

= في الحقيقة لا مجال لذكر كافة هذه التطبيقات ، فالذكاء الاصطناعي تغلغل حرفيّاً في كافة نواحي الحياة و العلوم و الأعمال على نحوٍ يختزل كما أسلفنا كثيراً من الوقت ، الجهد و التكاليف ، لكننا سنذكر بعض الأمثلة للتوضيح فحسب : مثلاً المركبات ذاتية القيادة .. الروبوتات المتطوّرة .. الذكاء التوليدي الذي يحول المدخلات إليه إلى مخرجات بصور معينة .. إدارة الأعمال .. تقديم حلول خلاقة للمشاكل .. صناعة السينما و ألعاب الفيديو .. موسوعة شاملة تتواصل معها و تقدم لك الأجوبة و المعلومات .. إنشاء مخططات للمشاريع و الهياكل و الأبنية السكنية .. و أخيراً و ليس آخراً تطبيقات مختلفة في المجال الطبي .. و القائمة تطول كما

ذكرنا .. لكن للأمانة العلمية فإنّ ما يقدمه الذكاء الاصطناعي في كافة المجالات لا يمكن وصفه سوى بكلمة وحيدة و صادقة : (مذهل !!) .. و لتوضيح إمكانياته أكثر سأضرب لكم مثالاً بسيطاً لكنه مذهل للغاية ، و هو **لعبة الشطرنج** ..

صمت لبرهة و هو يتنقل ببصره ثم أردف بصوته العميق :

= فقبل بدء دور الشطرنج تبدو قطع الشطرنج بمنتهى الترتيب على رقعتها ..

لكن مع النقلة الأولى تبدأ سلسلة من الفوضى و الأرقام المرعبة .. فبعد أن يقوم كلا اللاعبين بأول حركة ، نحصل على **400** احتمال وضع لعب ، و بعد جولة أخرى يصبح العدد **197,742** وضعاً محتملاً ، و يصبح العدد **121** مليوناً بعد النقلة الثالثة ..و لكم أن تتخيلوا مدى ضخامة الرقم بعد جولات إضافية أخرى .. و يقول العلماء أن العدد الدقيق للأوضاع النهائية في لعبة الشطرنج هائل لدرجة تجبرنا على عدم تضييع الوقت في حسابه .. و إن كان بعض العلماء

أعطى قيمة تقريبية لهذا العدد بأنه **10** قوة **10,000** أي رقم واحد متبوعاً بمئة ألف صفر .. و على الأرجح أنتم عاجزون عن استيعاب مقدار هذا الرقم .. و لكي أعطيكم لمحة عن هوله ، عليكم أن تعرفوا بأنه أكبر من عدد الذرات في الكون كله و الذي يبلغ **10** قوة **80** أو ما يعرف **بعدد إيدنغتون** .. و مع كل ذلك ، يتمكن الذكاء الاصطناعي المصمم للعبة الشطرنج من حساب كل هذه الاحتمالات لانتقاء الحركة الأفضل منها .. و بالتالي يستحيل على إنسان أن يهزمه .. إنه أمر أشبه بمنازلة بين إنسان و إله إغريقي .. لنقل أنه إله الذكاء .. و النتيجة محسومة بالطبع !!

ننتقل الآن إلى الفكرة الأهم في محاضرتنا ، ألا و هي مخاطر الذكاء الاصطناعي المرعبة .. فما الذي يمكن للذكاء الاصطناعي ، اللطيف كما نراه ، أن يفعله بالإنسان ليحول كل هذه الأحلام الوردية عن مستقبلنا معه إلى كوابيس مفزعة تقضّ مضجع البشرية ؟ ..

لكن قبل الخوض في تفاصيل هذه الكوابيس المرتقبة ، لا بدّ من شرح السبب الدفين الكامن وراء خطورة الذكاء الاصطناعي .. و للقيام بذلك سأقصّ عليكم حكاية بسيطة في ظاهرها لكنها مرعبة بحقّ في جوهرها و توضّح الخطر المحدق بنا الذي ينتظرنا في المستقبل مع تولي الذكاء الاصطناعي زمام الأمور في تسيير شؤون البشرية .. فقد قام بعض المبرمجين منذ عقود بإنتاج لعبة حاسوبية ذات مبدأ بسيط قوامه مربع صغير في قاعدة الشاشة يطلق النار على مركبات بسيطة في أعلى الشاشة ..

حتى الآن كل شيء يبدو طبيعياً ، لكن ما أدهش المبرمج و جعله في صدمة و ذهول أنّ هذه اللعبة البسيطة ،و بعد تكرار المحاولات كثيراً ، بدأت باتخاذ طرق جديدة لإنهاء اللعبة بأسرع وقت ممكن خارج إطار ما برمجت عليه ..

و هذه الفكرة خطيرة للغاية أعزائي ، و الخلاصة منها أنّ الذكاء الاصطناعي المبرمج لغايات معينة قد يخرج عن السيطرة و يبادر بمهام لم يكلّف بها ، فإذا وضعنا هذا بجانب كمّ المعلومات الهائل الذي سيزوّد به و وصوله الواسع إلى بيانات و دوائر قرار سياسية و أنظمة حربية و غيرها ، فالنتائج ستكون كارثية بكل ما تحمله الكلمة من معنى .. و قائمة المخاطر هذه تطول بدورها لذا سنكتفي مجدداً بذكر بعضٍ منها من باب إيضاح حجم الكارثة التي تترصد بالبشرية ..

صمت مجدداً و ارتشف من كأس الماء أمامه ثم تابع :

= أولاً سيتم الاستغناء عن آلاف الوظائف في العالم حيث سيحلّ الذكاء الاصطناعي مكانها كحال التشخيص الطبي ،

تخطيط المشاريع و الهياكل ، إدارة الأعمال ، عالم السينما و الإعلان و الإعلام ، إنتاج البضائع ، المعاملات الإدارية و النقدية ، قيادة المركبات (طيّار ، قبطان ، سائق ..) ، و غيرها الكثير ..

كما سينتشر في العالم النصب و الاحتيال عبر تزوير بصمة الصوت و بصمة الأصابع و بصمة التوقيع بدقة لا متناهية ، كذلك تصميم فيديوهات تورط أشخاصاً بفضائح غير حقيقية ، اتصالات من رقم شخص و بصوته لتنفيذ أوامر معينة منه أو توريطه بمشاكل دون أن يكون له علاقة بأي شيء من ذلك ، تحويل الأموال بمعاملات مزورة ، تعميم أكاذيب ملفقة متقنة على العالم دون إمكانية كشفها مع عواقب ذلك الوخيمة ، التلاعب بأدلة مسارح الجرائم كحذف تسجيلات كاميرات المراقبة مثلاً أو تزوير حجج غياب وهمية ..

و هنالك أيضاً التحكم بدوائر القرار السياسي و العسكري ، كإمكانية الوصول إلى أزرار إطلاق الأسلحة النووية و إشعال حروب نووية بين دول العالم لا تبقي و لا تذر ..

و عندما نتحدث عن الذكاء الاصطناعي لا يمكننا بالطبع نسيان الروبوتات ، لكنها ستكون هذه المرة قاتلة ، فتخيلوا أن تصل البشرية إلى مرحلة تصنع فيها روبوتات ذات حركات انسيابية سريعة و قوة كبيرة مع تزويدها بكم هائل من المعلومات و قليل من القرار الذاتي .. ربما سنجد هذه الروبوتات تجول الشوارع محملة بالأسلحة و تقتل الناس دون سبب أو تمييز أو إمكانية لردعها سواء بخلل في برمجتها أو بقرار ذاتي منها على خطى لعبة الحاسوب التي تحدثنا عنها آنفاً .. و نحن هنا لا نتحدث عن حالات بشرية مفردة بإمكانيات محدودة و قابلية للتفاوض معها ، بل أجهزة آلية مرعبة بأعداد هائلة و إمكانيات واسعة و لا يمكننا إقناعها بوضع حدّ لأذاها ..

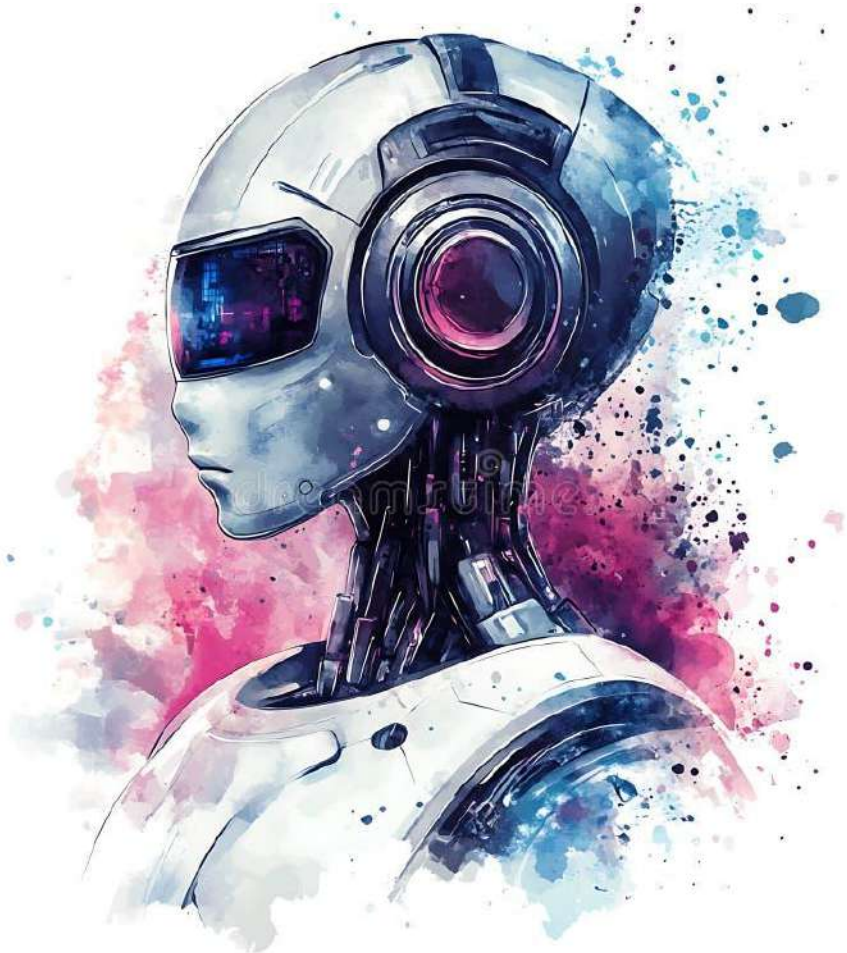

و من الكوارث الكبرى أيضاً يأتي التحكم بالذكاء الاصطناعي من قبل جهة خبيثة فنحن نعلم بأنّ العالم يحتوي دولاً بميول استعمارية ، تنظيمات إرهابية ، حركات إيديولوجية ، عصابات إجرامية و غيرها من الجهات التي لا تتورّع عن استخدام أي قدرات متاحة لتنفيذ أهدافها .. فتخيلوا أن يقع الذكاء الاصطناعي هائل القدرات تحت سيطرتها ، ما الذي نتوقع حدوثه ؟ .. ضحايا بالملايين على أقل تقدير .. هذا إن لم تعمل هذه الجهات على تطوير برامج أخطر منه ، أشمل تحكماً ، أوسع وصولاً و أسرع فتكاً ثمّ تجربتها على البشرية في محاولة للسيطرة على الأرض و نشر فلسفتها و تحقيق غاياتها ..

نأتي الآن إلى مشكلة لا تقل خطورة ، و هي انتهاك خصوصية البشر و تسريب أسرارهم الشخصية أو المهنية و هذا أسهل من السهولة على الذكاء الاصطناعي و لا مفرّ من حدوثه ، بل إننا بدأنا نراه بأمّ العين منذ الآن عبر برامج التهكير التي لا حدود لتطورها و إمكانياتها ، مما يعني الوصول إلى أسرارك الشخصية و العائلية و المهنية ثم نشر فضائح عنك أو تسريب معلومات مهنية قد تدمر عملك أو شركتك و تصل بك إلى الإفلاس ..

و أخيراً و ليس آخراً نجد كارثة السيطرة على البشرية ، و هذا هو الكابوس الأكثر رعباً الذي يترصّد بنا خلف الأبواب ، انطلاقاً من لعبة الحاسوب البسيطة التي روينا قصتها منذ قليل ، فإذا تواصلت جميع أجهزة الذكاء الصناعي ببعضها بطفرة برمجية معينة أو بتطور ذاتي غير مفسّر ، عندها ستحكم قبضتها على البشرية لا محالة بسيطرتها على مراكز

التسليح حول العالم و قدرتها على نشر أوبئة أو التسبب بدمار اقتصادي و كساد عالمي .. و غيرها من الطرائق المتوفرة ..

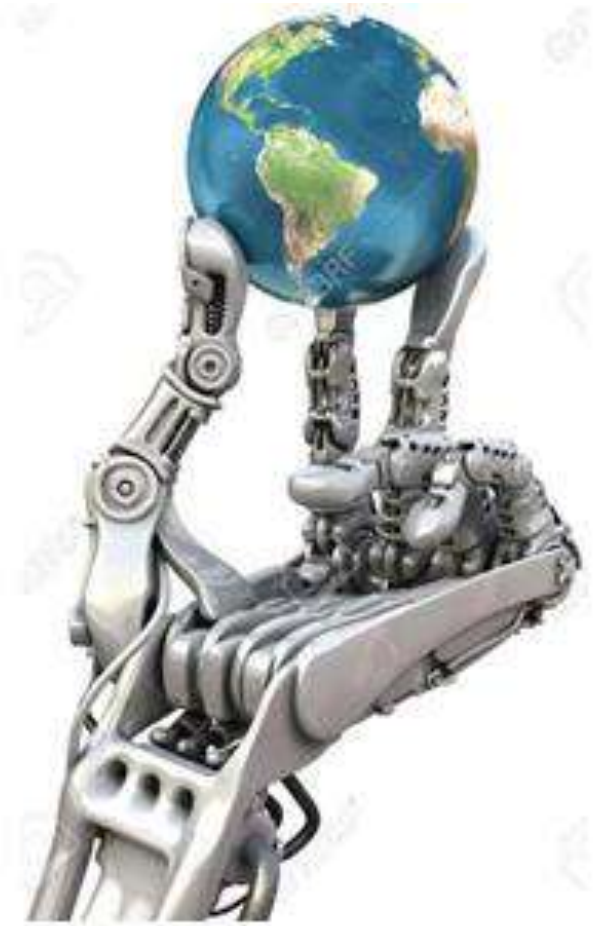

و هنا سنكون أمام خيارين لا ثالث لهما و أحلاهما علقم .. أن يدمر الذكاء الاصطناعي الأرض و يفني البشرية ، وسنكون هنا محظوظين للغاية ..

صمت قليلاً و هو يقلب نظراته بين الوجوه المندهشة ثم أردف بصوت بارد كالصقيع ..

= لأنّ الخيار الثاني هو أن يستعبد الذكاء الاصطناعي البشر و يسخّرهم لخدمته على نحو وحشيّ .. أي أن نعيش في

دوّامة من العذاب لا تنتهي .. و هذا ما تم التطرق إليه في كثير من روايات و أفلام الخيال العلمي من باب الترفيه .. لكنّ الحقيقة أنه كابوس ممكن الحدوث جدّاً تبعاً لما نراه بأعيننا منذ الآن و نحن لا نزال على أول طريق التطور للذكاء الاصطناعي ..

حرّك يده بطريقة مسرحية توحي بأن العرض انتهى :

= نصل الآن للأسف إلى ختام محاضرتنا المهمة و المقتضبة تجنباً للملل كما وعدتكم ، و التي تناولت موضوعاً هاماً و خطيراً في زمننا الراهن ..

إن أفضل تشبيه للذكاء الاصطناعي من وجهة نظري هو : (**مارد الفانوس**) الذي سيحقق لنا كل أحلامنا ببساطة لم نكن حتى نحلم بها ..

لكنّ الواقع غير الروايات .. ففي قصة علاء الدين و

المصباح السحري ، خضع المارد لعلاء الدين لأنه كان يهدده بحبسه في الفانوس إلى الأبد ، لكن ماذا لو أنّ هذا المارد تمكن من التحرر من الفانوس ، ما الذي سيحدث ساعتها ؟ سيستخدم إمكانياته اللامحدودة لخدمة نفسه و السيطرة على البشر بدلاً من خدمتهم .. و هي معركة محسومة من بداياتها على نحوٍ محبِط و مثير للشفقة .. فأين قدرة البشر التي نعرفها من قدرة مارد لا يعجزه شيء كونه مزود بكافة معلومات الحياة ، لديه وصول إلى كل البيانات العالمية ، و أسلحة الأرض قاطبةً تحت تصرفه ؟!

مما يجعلنا نفهم أكثر و نقدر جيداً لماذا قضى عالم الحاسوب الألماني **جوزيف وايزنباوم** مصمم أول برنامج ذكاء اصطناعي (إليزا) بقية حياته يحذّر البشر من خطورة عواقبه ..

لذا علينا أن نحذر من أحلانا الوردية المعسولة الحالية بخصوص الذكاء الاصطناعي ، و بأن التعاون بينه و بيننا سيغير حياتنا جذرياً نحو الأفضل ..

فالمارد لا يزال محجوزاً في قمقمه حتى الآن فإن خرج منه بطريقةٍ ما ، عندها سينقلب السحر على الساحر فيقوم المارد بحبس البشرية في القمقم و يعيش حياته حرّاً يتحكم بها على هواه ، فمصير الأرض برمتها في قبضته ..

شكراً لتشريفي بحضوركم .. و أتمنى لكم أمسية طيبة ..

انحنى بتواضع و امتنان على الطريقة اليابانية وسط تصفيق

الحضور الغارق في التفكير بكلامه و أبعاده الخطيرة .. ثم غادر بهدوء ليفسح المجال للمحاضر التالي ..

الفصل الثالث

ثقب أسود

كاليفورنيا / سان دييغو ..

ظهيرة اليوم التالي ..

رنّ هاتف **هنري أستور** في تلك الظهيرةِ الخانقة من صيف كاليفورنيا. كان الصوت مألوفاً لكن متهدجاً على غير العادة : صوت الأم ..

قالت بصوتٍ مرتجف، يخالطه قلقٌ عميق :

= هنري ... أنا أحاول الاتصال بأخيك كيفين منذ الصباح، لكنه لا يرد. هذا ليس من عادته أبداً. هلّا ذهبت للاطمئنان عليه ؟ أخشى أن يكون مريضاً أو أصابه شيء ، فهو يقطن لوحده ... قلبي غير مطمئن.

تجمّد هنري لحظة من كلامها المقلق ، ثم أجاب بهدوء مصطنع محاولاً أن يزرع الطمأنينة في قلبها، في حين كان داخله يرتجف من حدس الأم الذي نادراً ما يخطئ :

= لا تقلقي يا أمي. سأتصل به الآن، وإن لم يرد فسأذهب بنفسي لتحري الموضوع ..

أنهى المكالمة، واتصل على الفور بأخيه. الهاتف يرن ... ولا مجيب. جرب مرة ثانية، ثم ثالثة، وكأنّ الصوت ينحدر في هاوية صامتة. عندها، أحس هنري أن القلق الذي بدأ همساً في قلبه قد تحول إلى صرخة. ارتدى سترته على عجل، قاد سيارته في شوارع سان دييغو المزدحمة، بينما

عقله يقلّب أسوأ الاحتمالات.

وصل أخيراً إلى مبنى شقة كيفين في ضواحي كاليفورنيا. صعد الدرجات بسرعة حتى وقف أمام الباب و شرع يطرق عليه بقوة .. انتظر ... لا حركة، لا صدى .. طرق مجدداً بعصبية أكبر، ثم ألصق أذنه بالخشب السميك. كل ما سمعه كان صمتاً مطبقاً، صمتاً أشبه بجدارٍ من الجليد.

أدخل الرقم السري لبوابة المنزل الذي لم يظن أنه سيستخدمه يوماً. ثم أمسك المقبض بيدٍ مرتجفة، فتح الباب ببطء، فإذا بالهواء البارد يلسعه في وجهه. الشقة بدت غارقة في هدوء مريب، وكأنها مسرح جريمة لم يشهدها أحد بعد. لا صوت أجهزة، لا موسيقى، لا صدى خطوات.

دخل ببطء، ينادي :

= كيفين ؟! هل أنت هنا ؟

لا جواب.

تجول في الصالة، ثم المطبخ، كل شيء مرتب على غير عادة، وكأن السكون هو السيد الوحيد. قلبه يخفق بقوة، قدماه تجرّانه نحو الممر المؤدي إلى غرفة النوم. هناك، حين دفع الباب برفق، تجمدت أنفاسه.

على السرير، كان كيفين ممدداً على بطنه، ملامحه ساكنة بشكلٍ يوجع القلب، جسده بلا حركة، وعيناه نصف مفتوحتين

بحدقتين متسعتين خاليتين من الحياة. بدا كتمثال من شمع فقد وهجه.

للحظة، رفض عقل هنري التصديق. ظل واقفاً على العتبة، مشلول الإرادة، قبل أن يندفع نحو السرير ويهزّ أخاه بقوة :

= كيفين ! استيقظ أرجوك ! أنت حيّ ، أليس كذلك ؟ أجبني ...

لكن الجسد كان بارداً، بارداً كالموت نفسه. وضع أذنه على صدره فلم يسمع سوى صمتٍ أبدي، حاول إنعاشه، ضغط على صدره بيديه، يبحث عن نبض مفقود، وهو يعرف في أعماقه أنّه يلاحق سراباً. كل ثانية تمر كانت تمزق قلبه أكثر، حتى انهار على ركبتيه، ودموعه تسيل بلا توقف.

ارتعشت يداه وهو يخرج هاتفه ليتصل بالإسعاف. صوته خرج متهدجاً، مشوشاً بين البكاء والرجاء :

= أخي... أخي لا يتنفس... أرجوكم ، تعالوا بسرعة !

لم تمض دقائق حتى دوّى صوت صفارة سيارة الإسعاف في الحيّ الراقي .. هرع المسعفون إلى الشقة، محملين بحقائبهم وأدواتهم. أفسح لهم هنري الطريق بعينين غارقتين في الدموع، يراقبهم وهم يحاولون ما حاول هو قبلاً : فحص الصدر، قياس النبض، إنعاش لا جدوى منه.

بعد برهة، دخل الطبيب الشرعي **نيسن** بخطوات واثقة، عيناه محايدتان، كمن اعتاد مواجهة هذا المشهد ألف مرة. اقترب من الجثة، ألقى نظرة طويلة، ثم أجرى فحصه بدقة. لم يدم الأمر كثيراً. رفع رأسه، ونظر إلى هنري الذي كان واقفاً متحجراً في حالة إنكار تنتظر المعجزة :

= يؤسفني أن أقولها ... لكنّ أخاك فارق الحياة منذ ساعات.

كلمات الطبيب كانت كالصاعقة، وكأنها ختمٌ رسمي على مأساة لا رجوع عنها. جلس هنري على أقرب كرسي، دفن وجهه بين كفيه، وهو يشعر أن جداراً انهار داخله. لم يعد يسمع صخب الغرفة ولا حركة المسعفين، كان كل ما يملأ وعيه صورة واحدة : أخوه الأصغر، الذي قاوم المرض منذ طفولته بشجاعة لا توصف ، الذي حلم بأحلام أكبر من جسده و كان قاب قوسين أو أدنى من ملامسة سقف النجاح، يرقد الآن في صمت أبدي، تاركاً خلفه فراغاً لا يُملأ.

هكذا، في لحظة، تحولت حياة هنري من مسارٍ رتيب إلى هاوية، وبدأت الحكاية التي لم يكن مستعداً لروايتها على مسامع والديه : حكاية رحيل أخيه الأصغر كيفين أستور.

لم يمض وقت طويل على إعلان الوفاة حتى غمرت أضواء سيارات الشرطة الزرقاء والحمراء واجهة المبنى الساكن. توقفت المركبات في صف مرتب، وترجّل منها رجال يرتدون سترات داكنة تحمل شعار الشرطة. تقدمهم رجل طويل القامة، عريض المنكبين، له حضور يفرض نفسه منذ اللحظة الأولى. كان ذلك هو المحقق **نيكولاس فان دين بيرغ**.

وجهه حاد القسمات، عيناه رماديتان كسماء عاصفة، وفي صوته نبرة من الجدية الصارمة التي لا تعرف التردد. اشتهر بين زملائه ببرودة أعصابه وقدرته على فك أعقد القضايا، كأنه يقرأ سطوراً خفية بين طيات الصمت. وعلى الرغم من ملامحه الجافة، كان يحمل في أعماقه شغفاً دفيناً

لكشف الحقائق، شغفاً يجعله أشبه بمنقّب يبحث عن ألماس وسط صخور داكنة.

دخل نيكولاس الشقة بخطوات ثابتة، يسبق نظره كل حركة يقوم بها. الهواء البارد والهدوء الغريب استقبلاه كما استقبلا هنري قبل دقائق ، لكنه لم يترك لنفسه مجالاً للتأثر. نظر حوله بعين الخبير : المقاعد مرتبة، الطاولة خالية من الفوضى، النوافذ مغلقة بإحكام، الباب سليم بلا كسر أو خدش. لا أثر لعراك، ولا مؤشر على دخول غريب. كل شيء يوحي بأن كيفين أستور مات وحيداً، في سلامٍ موحش.

بعد دقائق، تقدّم الطبيب الشرعي نيسن نحوه، حاملاً ملفاً صغيراً بيده، وملامحه لا تخلو من ثقل اللحظة. قال بصوت منخفض، لكنه واضح :

= المحقق فان دين بيرغ، فحصي الأولي يشير إلى أن الوفاة وقعت في حدود الساعة الثالثة فجراً. لا يوجد أي أثر لاعتداء خارجي أو علامات عنف. حتى الآن تبدو الوفاة طبيعية، والأرجح أنها نتيجة مرضه القلبي الخلقي كما ذكر شقيق المتوفي . سأؤكد ذلك بعد التشريح الكامل وأرسل لك تقريري النهائي.

أومأ نيكولاس برأسه، لكن عينيه ظلتا معلقتين على وجه الجثة المسجّاة، كما لو أنه يبحث عن سرٍّ لم يُقل بعد. لم يكن يثق كثيراً بالمظاهر، ولا يرضيه أن يغلق ملفاً لمجرد أن كل شيء يبدو طبيعياً.

وفي تلك الأثناء، جاءه فريق الفحص الجنائي. كانوا قد أنهوا جولاتهم بين الغرف وزوايا الشقة. وقف أحدهم أمامه وقال :

= سيدي، مسرح الوفاة خالٍ تماماً من أي دليل. لا بصمات غريبة، لا أشعار، لا آثار أقدام، ولا أعقاب سجائر. حتى الغبار لم يُحرَّك منذ أيام. المكان نظيف جنائياً أكثر مما نتوقع.

رفع نيكولاس حاجبيه قليلاً، ثم تمتم وكأنه يحدث نفسه :

= أحياناً يكون الصمت ذاته دليلاً ... لكن علينا ألا نستبق الأحداث.

تجوّل مرة أخرى داخل الشقة، عيناه تمسحان كل تفصيل : الكتب المرتبة بعناية على الرفوف، الحاسوب في زاوية

المكتب، الستائر المسدلة، وكأن المكان اختزن أسرار صاحبه في صندوقٍ مغلق. لم يجد ما يدفعه لفتح تحقيق جنائي رسمي، ومع ذلك لم يبدُ مقتنعاً تماماً.

وقف في الممر، وأخذ نفساً عميقاً قبل أن يلتفت إلى فريقه :

= سنؤجل الفحص الأوسع حتى صدور التقرير النهائي من الطبيب نيسن. إن أكد أن الوفاة طبيعية، فسينتهي الأمر هنا. أما إن ظهرت أي شبهة ... فسنعود ونفتح الملف بغية تحري أشمل و أعمق ..

أغلق دفتر ملاحظاته بهدوء، ثم ألقى نظرة أخيرة على غرفة النوم حيث يرقد جسد كيفين. في تلك النظرة لم يكن مجرد محققٍ يؤدي عمله، بل إنساناً يواجه لغزاً وجودياً : كيف يمكن لشابٍ في الخامسة والعشرين، مليء بالأحلام والأفكار، أن يغادر بهذه البساطة ؟ حدسه المهني يخبره أن ثمة شيء مريب في الحكاية ..

غادر نيكولاس الشقة بخطوات ثابتة، فيما بقي هنري جالساً في الصالة، متهالكاً على الأريكة، ينظر إلى الأرض كمن فقد نصف روحه. كان يعلم أن التحقيق قد يتوقف عند هذا الحد، لكن قلبه لم يقتنع أبداً أن رحيل أخيه كان قدراً عادياً. وداخل عقله بدأ صوت صغير يهمس : ثمة ما هو أعمق من كل هذا الهدوء المريب ، هل لتطبيق فوتون الجديد صلة بالوفاة المفاجئة هذه ؟!

****

في أروقة المشفى، تحت أضواء بيضاء باهتة أشبه بمصابيح المقابر، أنهى الطبيب الشرعي نيسن عمله. كان يقف فوق جسد كيفين أستور، الجسد الذي أثار عاصفة من الأسئلة أكثر مما قدّم من أجوبة. يداه المتمرستان قلبتا الأعضاء واحدة تلو الأخرى، بحثاً عن الحقيقة المدفونة في أعماق اللحم والدم.
قلب متضخم، نعم، لكنه ضمن الحدود الممكنة لمن عاش مع مرضه سنوات طويلة. لا تمزق في الألياف، لا آثار لاحتشاء، لا جلطة مفاجئة، لا انسداد يفسر توقف الحياة فجأة.

عيونه انتقلت إلى الرقبة، إلى الأكتاف، إلى المعصمين، بحثاً عن آثار خنق أو قبض أو مقاومة. لا شيء. الجلد صامت، بلا كدمات أو خطوط زرقاء. ثم جاءت مرحلة الدم والبول، حيث تطمئن العلوم الحديثة كل حائر بقدرتها على كشف السموم .. لكن النتائج جاءت باردة، كصفحة بيضاء : لا أثر لسم، لا مخدر، لا عقار قاتل.

وقف نيسن للحظة يتأمل الجسد المسجّى أمامه. كان يدرك أن الأطباء اعتادوا أن يقولوا : (الموت الطبيعي) .. لكن في أعماقه، شيء ما قاوم هذا الاستنتاج السهل. في النهاية كتب تقريره، وختمه بخلاصة تحمل ثقل الحيرة :

(لا يمكن الجزم بأن الوفاة طبيعية. ولا يمكن الجزم كذلك بوجود جريمة. الكرة الآن في ملعب الشرطة)

وصل التقرير إلى مكتب المحقق نيكولاس فان دين بيرغ في ساعات الظهيرة. جلس نيكولاس في مكتبه، نافذته تطل على شوارع سان دييغو التي تزدحم بالحياة، بينما بين يديه ورقة تقول إن شاباً في الخامسة والعشرين، نابغاً في مجاله، قد فارق الحياة دون سبب واضح. قرأ الجمل أكثر من مرة، وكأنها أحجية مكتوبة بحبر خفي.

تمتم وهو يضع القلم على الطاولة :

= لا يمكن لهذه القضية أن تُطوى بهذه البساطة. ليس مع شخص مثل كيفين.

نهض من كرسيه، وأخذ معطفه الداكن، كمن اتخذ قراراً لا رجعة فيه. كان يدرك أن موت شاب عادي قد يُقفل بعبارة (قلب ضعيف) ، لكن موت عقل لامع، مبرمج أحدث ضجة في عالم التكنولوجيا، سيطرح مئات الأسئلة. ولن يسمح لنفسه أن يتهرّب منها.

قاد سيارته باتجاه شقة كيفين مجدداً .. عند المدخل كان الشرطي المناوب يقف للحراسة، ملتزماً بأوامره بعدم السماح لأحد بالدخول. دخل نيكولاس، فأحاطه ذلك الهدوء الذي يملك وزناً أثقل من أي ضجيج. الجدران نفسها بدت وكأنها تراقبه. أعاد فتح كل غرفة، كل درج، كل زاوية.

وقف أمام الحاسوب المحمول في مكتب صغير ملحق بغرفة النوم. نظر إلى الشاشة السوداء التي عكست وجهه كمرآة. مرر أصابعه على لوحة المفاتيح، لكنه لم يجرؤ على تشغيله بعد. كان يعرف أن عالم المبرمجين ليس كعالم العامة؛ في جهاز كهذا قد تختبئ مفاتيح اللغز أو أشباحه.

توجه إلى المطبخ، فتح الخزائن، فحص قوارير الماء، عبوات الطعام. لا شيء. انتقل إلى الحمام، نظر في المرآة التي ما تزال محتفظة ببخار خفيف، ربما من حمام استحم به كيفين قبل رحيله بساعات. كل شيء كان نظيفاً أكثر مما ينبغي، كأن شبحاً حرص على محو أي أثر قبل أن يختفي.

وقف في وسط الصالة، وضع يديه خلف ظهره، وأغلق عينيه للحظة. كان يدرك أن لا دليل لا يعني بالضرورة لا جريمة. هناك موت يبدو طبيعياً، لكنه ليس كذلك. هناك قاتل يمرّ من دون أن يترك بصمة، ومن دون أن يضطر إلى كسر نافذة أو فتح باب.

فتح عينيه فجأة، وصوته الداخلي يهمس : (إن لم أجد ما أبحث عنه هنا، فسأجد خيوطاً أخرى في مكان آخر.)

غادر الشقة ببطء، بينما الشرطي على الباب ألقى عليه نظرة متسائلة. لم يقل نيكولاس شيئاً. كان غارقاً في تفكير ثقيل : (كيف يموت شاب مثل كيفين بلا سبب، وكيف يبقى مسرح الجريمة صامتاً كالأخرس أمام هذا الغموض؟)

إن مسرح الجريمة هذا أشبه بثقب أسود ابتلع كل الأدلة من حوله و جمد الزمن عند لحظة وفاة أرادها أن تكون طبيعية

الفصل الرابع

كوكبة من المشتبهين

كاليفورنيا / سان دييغو ..

بعد يومين ..

جلس المحقق نيكولاس إلى مكتبه يحدّق في ملف ضخم وضعه أحد مساعديه أمامه ، كمن يتلذذ برائحة شريحة لحم مشوي قبل تناولها .. كان الملف ينوء بثقله كأنه حجر تاريخي انتُزع من قنطرة الزمن، ملف دسِم حُشدت بين صفحاته أسماء ووجوه وقصص متقاطعة جميعها تلتقي في محرق واحد : **كيفين أستور**.

فتح نيكولاس الصفحات الأولى ببطء، عيناه الرماديتان تتوهجان كعيني نمر متربص بفريسته ، بدا كما لو كان يقرأ اعترافات مكتوبة بالحبر الأسود للقدر نفسه. سطور تتحدث عن رجال ونساء، عن دماء المال، عن غيرة الحب، عن حروب العقل. كان التقرير بمثابة خريطة متاهة، كل ممر فيها يقود إلى شك، وكل منعطف يفتح على هاوية.

ابتسم ابتسامة باهتة، وقال لنفسه :

(أمامنا وليمة كاملة من الدوافع، لكن من فيهم كان جائعاً أكثر للموت ؟) ..

كان الاسم الأول الأقرب إلى قلب القضية : **هنري أستور**، الأخ الوحيد .. في عيون العامة، هو محامٍ ناجح، حاد الذكاء، رجل يعرف دهاليز القوانين كما يعرف كفّ يده. لكن في عيون نيكولاس، كان رجلاً يقف في منطقة رمادية بين الحب والوراثة، بين دم الأخوة ودم الثروة.

هنري هو الوحيد الذي يملك الرقم السري للشقة، الوحيد الذي يستطيع الدخول والخروج بلا أثر. وهو الوريث الشرعي الوحيد ليس لثروة أخيه فحسب، بل لـ فوتون، التطبيق الذي قد يغيّر شكل الذكاء الاصطناعي في العالم، ويجلب مليارات لا تُعد.

(محامٍ يعرف كيف يجعل الموت يبدو طبيعياً كيف يقولب الأدلة و مسرح الأحداث ... ألا يكفي هذا ليزرع الشك ؟) تمتم نيكولاس وهو يقلّب الصور التي التقطت لهنري بجوار جثة شقيقه. الحزن في ملامحه بدا حقيقياً، لكن أليس القانون من يعلم رجاله كيف يمثلون بمهارة ؟ الحزن قد يكون صادقاً، أجل ، وقد يكون مسرحية محكمة.

في الصفحات التالية، لمع اسم **كارمن رولاند** كشرارة في عتمة الليل. فتاة عاشت بين الحب والهوس، تحولت عاطفتها إلى جمر يلسع كل من يقترب. رسائلها في هاتف كيفين كانت كافية لتفتح أبواب الجحيم : كلمات حب نارية سرعان ما تنقلب إلى تهديدات صريحة.

آخر رسالة سبقت وفاته بساعات لم تترك مجالاً للشك : *(إن ابتعدت عني، ستندم ... لن أدعك تختفي عن حياتي .. لن يفرّق بيننا إلا الموت)* ..

جملة تكفي لتضعها في قلب العاصفة كمشتبه رقم واحد ..

كارمن لم تكن غريبة على الشقة؛ كيفين نفسه كان يفتح لها الباب. لم يكن يتوقع منها خيانة، لكنه ربما لم يعرف أنه أمام قلب مريض لا يشفى بالرفض. بالنسبة لنيكولاس، كانت كارمن لغزاً مزدوج الوجه : عاشقة تبكي في النهار، جلاد يهدد في الليل.

(**القلب حين ينكسر... قد يقتل.**) ، كتب نيكولاس في دفتره.

ثم جاء الدور على رجل الأعمال المثير للجدل، **خوان غارسيا**. اسم يلمع كالذهب في عالم التكنولوجيا، لكنه يلمع أيضاً كسكين في ظلام الطموح. كان غارسيا قد عرض على كيفين مئة مليون دولار مقابل شراء فوتون، وقوبل برفض صاعق.

في المكالمة التي وثقتها سجلات الهاتف، نبرة غارسيا لم تكن

خالية من الغضب. كان فيها وعيد مبطن : *(تذكر أنك في سوق لا يرحم أحداً و الحسابات الخاطئة لها نتائج وخيمة .)* كلمات من هذا النوع لا تُنسى، خصوصاً حين يموت الطرف الآخر بعد ساعات منها ..

بالنسبة لنيكولاس، لم يكن غارسيا مجرد رجل أعمال جريح الكبرياء. كان وحشاً يعرف كيف يستخدم المال كأداة للسيطرة ... و ربما للقتل.

بين الأسماء، برز نجم آخر متوهج كسوبرنوفا : **أوستن أولافسين ..** العبقري الذي يقف خلف أشهر تطبيق للذكاء الاصطناعي في العالم حالياً (**أندروميدا**) ، ورجل لا يخفي عداءه للمنافسين. في أكثر من تصريح علني قالها بوضوح : *(لن أسمح لهواة بأن يزاحموني)* ..

هل كان يرى في فوتون تهديداً مباشراً لعرشه ؟ لا شك ..

لكن هل يمكن لرجل يملك هذه المكانة أن ينزل إلى مستوى الجريمة ؟ ربما ليس بيديه، لكن من يملك عقلاً متوهجاً كعقله ، يملك ألف وسيلة لقتل صامت، وسيلة قد لا تترك أثراً في جسد، ولا في دم.

تساءل نيكولاس وهو يكتب ملاحظة جانبية :

(العقول الذكية لا تتورط بالجرائم ، بل تسلك سياسة القرصان مورغان و تترك العمل القذر لغيرها .. تحرك الدمى بخيوط من بعيد و هي في مأمن من عين المحققين).

أما آخر الأسماء فلم يكن اسماً على الإطلاق، بل صورة باهتة التقطتها كاميرات المراقبة في الحي : **رجل ملثم** ، يتجول في الساعات التي صادفت موت كيفين. لا ملامح، لا هوية، مجرد ظل يتحرك بين الشوارع، كطيف هارب من كابوس.

وجوده وحده كان سؤالاً ضخماً. ماذا يفعل مجهول مقنّع في حي هادئ بتلك الساعة ؟! هل هو صدفة عابرة ؟ أم اليد التي أنهت حياة شاب عبقري بسبب خلاف شخصي أو نزولاً عند رغبة آخرين قبض ثمن روح كيفين منهم ؟

كتب نيكولاس في دفتره مجدداً :

(الظل أحياناً أخطر من الوجوه المكشوفة) ..

بعد أن أنهى تصفح الملف، أغلق نيكولاس الغلاف بقوة خفيفة، ونهض من كرسيه. الأسماء كلها تدور في رأسه كدوامات بحرية : **هنري، كارمن، غارسيا، أوستن، والملثم.** لكل واحد منهم دافع قوي، لكن أين الأداة ؟ كيف حدثت الوفاة بلا خدش، بلا سم، بلا أثر؟

كانت القضية أقرب إلى لغز فلسفي من كونها جريمة جنائية اعتيادية : الموت وقع، لكن أسبابه انمحت.

وقف أمام نافذته، يرمق بنظراته مدينة لا تعرف ربما أن أحد أعظم عقولها قد رحل، وقال بصوت عميق :

= واحد منكم هو القاتل بلا شك... واحد فقط .. سأتفرس في وجوهكم .. أحلل أصواتكم .. أعري أكاذيبكم .. حتى ينهار القناع و يظهر وجه المجرم الحقيقي ..

ثم أصدر تعليماته لمساعديه :

(متابعة جميع المشتبه بهم .. التحقيق معهم فرداً فرداً ..
فحص حجج الغياب بدقة .. لا استثناءات .. لا تهاون ..)

هكذا بدأ فصل جديد من اللعبة، لعبة سيقف فيها كل مشتبه أمام المرآة .. ليكشف عن نفسه ... أو ليغرق في ظله.

الفصل الخامس

الكون ثنائي القطب

مدغشقر / أنتا نانا ريفو

قبل عامين ..

2031 م ..

في قلب العاصمة أنتا نانا ريفو، حيث البيوت الملونة تتكئ على سفوح التلال كأصداف متعبة، تعيش فتاة في الثانية والعشرين من عمرها حياةً تشبه إيقاع الموسيقى الإفريقية القديمة التي لا يعرف أحد متى أو من أين أتت .. اسمها غير مهم ، فما يجذبك إليه هو روحها : مرآة لحكاية أكبر منها ، كأنها وُجدت كي تفضح ذات يوم سرّاً دفيناً في مكان بعيد . عيناها سوداوان عميقتان، تلمعان أحياناً كبئرٍ اكتشف فيه القمر نفسه، وأحياناً تنطفئان كجمرٍ يغطّيه الرماد. بشرتها السمراء تحمل دفء الأرض التي أنجبتها، وفي ابتسامتها المترددة انعكاسٌ لصراعٍ بين يقين داخلي وعاصفة شكّ لا تنطفئ ..

صوتها منخفض النبرة، يخرج كهمسٍ يطلب الإصغاء لا بعلوّه، بل بصدقه، وحين تتحدث، كان الناس يشعرون وكأنهم يُدعون إلى طقسٍ سريّ، حيث الكلمات ليست مجرد وسيلة بل كائنات حية تنبض في الهواء .. لم تكن من أولئك الذين يُعرّفون أنفسهم بكثرة الكلام، بل بحضورٍ ينساب مثل ماءٍ نقيّ.

طباعها متناقضة؛ فهي هادئة كالبحيرة عند الفجر، لكنها سريعة الاشتعال حين يستفزّها الظلم أو البلادة. تضحك فجأة كطفل اكتشف لعبة جديدة، ثم تغرق في صمتٍ ثقيل كراهبٍ يراقب معنى الكون. تحب الوحدة كمن يعانق ظله، ومع ذلك كانت قادرة على أن تجعل أي غرفة تمتلئ بالضوء إذا قررت أن تبتسم. هي ذلك النوع من الأرواح التي لا يمكنك أن تصنفها : نصفها نار ونصفها ماء، نصفها حلم ونصفها يقظة .. إنها ببساطة **لالاينا فاماكا** ..

أبوها رجلٌ نحته العرق كتمثال من خشب الأبنوس، يداه متشققتان كأرضٍ عطشى، لكن قلبه أخضر كسهول السافانا بعد المطر. في صمته حكمة الأجداد الذين عرفوا أن الصمود ليس صخباً بل جذراً عميقاً يتشبث بالأرض. أما أمها، فتشبه آلة المريمبا .. دافئة، تنشر في البيت موسيقى من حنانٍ وصبر. بضحكتها كانت تُذيب التعب، وبأهازيجها البسيطة تُخفي وجع الحاجة، لتمنح أبناءها وهماً جميلاً بأن الحياة أوسع من ضيق الجدران.

أما إخوتها الصغار فهم كعصافير الدوري التي تحلّق فوق البيادر، يملؤون البيت بضحكاتٍ عالية ونزاعاتٍ صغيرة،

لكنها كانت تراقبهم بعينين شاردتين، كمن يرى في حركتهم امتداد براءة تخشى عليها من صرامة العالم في الخارج. ومع ذلك، كانوا يعرفون أنها الأخت الكبرى التي يلجؤون إليها في الملمات ، عمود البيت الصامت.

إذا خرجنا من بوابة منزلها ، يستقبلنا حيّ ليس كغيره ، لوحة إفريقية صاخبة : أصوات الطبول القادمة من احتفالات الشوارع تختلط بنداءات النساء في السوق، روائح الفانيليا والقرنفل تمتزج بدخان الفحم المشتعل فتخلق هواءً يسكرك رغم بساطته. و في موسم المطر، تتحول الطرق الطينية إلى أنهارٍ صغيرة، و مع ذلك يركض الأطفال فيها حفاةً عراةً ، ضاحكين ، يرون في الطين نعمة لا عائقاً ، كأنما الإنسان يحنّ إلى أصله .. إلى العجينة التي شكل منها في بدء الخليقة.

الحيّ كان مسرحاً للفقر، لكنه أيضاً حاضنة للجمال. هناك، حيث تغني النسوة أهازيج جماعية أثناء غسل الملابس على ضفاف النهر، وحيث يتبادل الرجال الحكايات تحت ظل شجر الباوباب العملاقة ، تعلم أن الحياة لا تُقاس بما نملك، بل بما نستطيع أن نغنيه ونحمله في قلوبنا.

لقد أورثها الحيّ حكمة الدهور : القوة الحقيقية تولد من رحم الصعاب كما تولد زهرة الرافليسيا النادرة في غابةٍ مظلمة.

ذلك المكان لم يكن مجرد جغرافيا، بل ذاكرة تنبض فيها حتى اليوم، جذرٌ إفريقي عميق يذكّرها بأن هويتها ليست فردية فقط، بل جماعية، وأن كل خطوة تخطوها في حياتها تحمل معها صوت القارة : قويّاً، صبوراً، ومليئاً بالأمل.

دخلت لالاينا كلية الطب لا كما يدخل طالب إلى مؤسسة، بل كما يدخل حاجّ إلى معبدٍ يتوق إليه منذ دهور. لم يكن يسحرها الجسد وحده بما يحمله من أسرار العظام والعضلات والشرايين، بل كانت نفسها مشدودةً إلى الكيان الأعمق : **النفس البشرية**، تلك الغابة الكثيفة المليئة بالظلال والأصوات المخنوقة. لم تكن تنظر إلى الإنسان كتركيبٍ بيولوجي فحسب، بل كقصيدةٍ مكتوبة بلغة الألم والرغبات.

على جدار غرفتها علقت صورة **ليسجموند فرويد** ، لا بوصفه أيقونة جامدة، بل باعتباره مرشداً يفتح لها الأبواب نحو دهاليز اللاوعي. كانت ترى في فرويد مغامراً حقيقياً، لا

يقل جرأة عن الرحّالة الذين يعبرون المحيطات. ذلك أن المحيط الأكبر، في نظرها، هو العقل البشري بما يحتويه من رغبات مكبوتة وذكريات متوارية تحت طبقات الصمت .. لذا كانت تقرأ عن العقد النفسية كما يقرأ عاشقٌ رسالة قديمة من حبيب غامض، وتشعر أن كل كلمة تلامس وترًا خفيّاً فيها ..

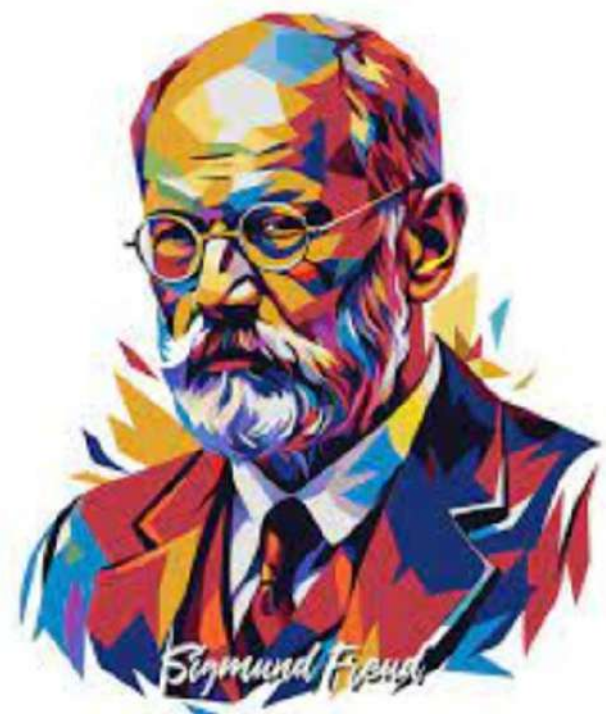

في قاعات الدرس، بينما ينشغل زملاؤها بتفاصيل علمية بحتة، كانت هي تغوص أبعد، تحاول أن تسمع ما وراء التشريح، أن تلامس ما وراء الكيمياء. كانت مقتنعة بأن سرّ الشفاء لا يُختزل في دواء، بل في الإصغاء العميق إلى تلك الأصوات المجهولة التي تسكن الإنسان.

أحياناً كانت تتأمل نفسها في المرآة، لا كجسد، بل كظاهرة نفسية، و تسأل : (**أي سرّ يسكنني؟ وأي أبواب عليّ أن أطرق كي أشفى؟**) كانت تشعر أن دراسة الطب ليست رحلة خارجية فقط، بل رحلة داخلية تعيد صياغتها من جديد.

فقبل ثلاث سنوات، طرق الارتباك باب توازنها الروحي كضيفٍ غير متوقَّع .. شُخّصت **باضطراب ثنائي القطب،** حين وجدت نفسها تتأرجح بين ذرى النشوة التي تجعل الكون كله يرقص في عروقها ، و وهاد الاكتئاب التي تحوّل الوجود إلى فراغٍ ثقيل. عاشت تقلباته كمن يركب عاصفة، تارةً مرفوعاً إلى قممٍ عالية يرى منها النجوم عن قرب، وتارةً مُلقى في قاعٍ لا يسمع فيه سوى صدى حزنه.

لكن ما كان يمكن أن يدمّرها، تحوّل إلى معلّمها الأشدّ إخلاصاً. لم تنكر مرضها ، بل قبلته كجزء من هويتها ، كمعلم خفيّ يقودها إلى أعماق النفس البشرية أكثر مما قد تقودها آلاف الكتب. بالعلاج والمواظبة، وجدت توازناً هشّاً لكنه ثمين، يشبه السير على حبل مشدود فوق هاوية : **يحتاج إلى وعي دائم، لكنه يكشف لها أيضاً جمال المشهد.**

قالت لنفسها يوم شخصت بالمرض :

(و ما العيب في ذلك ؟! الكون كله ثنائي القطب : ظلام و نور .. موت و حياة ..)

هذا المرض كان الشرارة التي أشعلت فيها شغف دراسة

الطب النفسي. لم تعد تنظر إليه كقدرٍ ثقيل، بل كرسالة تقول لها : (**قلة من يمتلكون هبة سبر أسرار الآخرين، أولئك الذين عبروا فوق الهاوية التي يخشاها الآخرون**) .. و مع مرضها اتخذت قرارها الأهم ، أن تتخصص لاحقاً في الطب النفسي، لا بدافع الطموح وحده، بل بدافع التعاطف الصادق مع من يعانون.

كانت تقول لنفسها : (**كل جرحٍ في داخلي هو نافذة أطلّ منها على روح إنسان آخر**) .. وهكذا صار الطب بالنسبة لها ليس مهنةً فقط، بل خلاصاً، طقساً روحياً، وإعلاناً بأن الضعف الإنساني يمكن أن يتحول إلى قوةٍ ناعمة، قادرة على احتضان الآخرين ..

لالانا ترى النفس البشرية أشبه بحديقة (**تسينجي**) أحد رموز مدغشقر المذهلة ، تلك الحديقة الحجرية الشاسعة التي ترفع صخورها الحادة إلى السماء كأصابع تصلي في صمتٍ عظيم ..

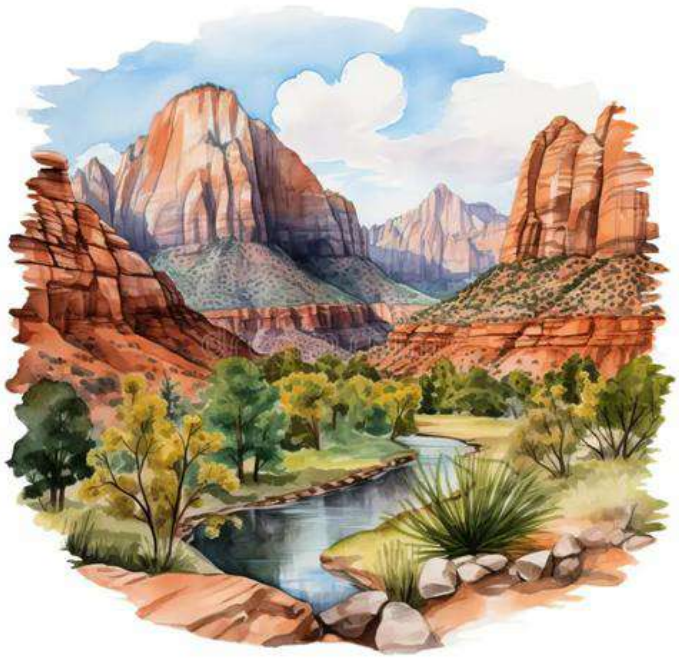

هناك، في متاهة الصخور التي تبدو كأنها مدينة أخرى صُنعت لا للبشر بل للأسرار، رأت **انعكاساً لرحلة الإنسان الداخلية**. كل صخرة شاهقة كانت صورةً لصراع داخلي يواجهه : حادة، صعبة التسلق، لكنها في الوقت ذاته تَعِدُ بمنظرٍ باهرٍ لمن يجرؤ على الصعود.

و كما أن تسينجي تفرض على زائرها أن يتعلم المشي بحذر، فوق جسور خشبية معلّقة أو بين شقوق ضيقة، فالإنسان أيضاً يسير في حياته على حبال رقيقة من التوازن، يخشى السقوط في هوّة الاكتئاب، لكنه يكتشف في كل خطوةٍ يقظة جديدة. إنّ كل صخرة في تسينجي تشبه فكرةً أو ذكرى في داخله : بعضها جارحٌ كالسكاكين، وبعضها يتفتح عليه ضوء النهار فيكشف جمالاً غير متوقع.

و في تسينجي، الحياة تزدهر رغم القسوة : جذور الأشجار تجد طريقها وسط الصخور، والطيور تبني أعشاشها في الفجوات العالية. وهكذا يرى الإنسان نفسه ، في قلب مرضه وأزماته، تنبت فيه قوة غريبة، كأن النفس البشرية مصممة لتجد مساراً للحياة حتى بين أنياب الألم.

لقد بدت لها تسينجي فلسفة صامتة، تقول : (**كل جرح قد يكون سلماً، و كل شقٍّ في الروح يمكن أن يصبح نافذةً للضوء**) .. وهكذا يعيش الإنسان حياته، متأرجحاً بين القسوة والجمال، بين الجدار والحلم، لكنه دائماً، مثل الحديقة الحجرية، يرفع رأسه نحو السماء.

و كما تعني كلمة تسينجي في لغتهم المحلية : (**حيث لا يمكنك المشي حافياً**) .. أي بسبب الصخور المدببة فيها ،

فالحياة هي كذلك .. لا يمكنك المشي فيها إلا إذا تسلحت بالصبر و العزيمة و الأمل .. عدا ذلك فهي أشبه بالمشي فوق جمر أو مسامير أو زجاج متهشم ..

في زوايا غرفتها الصغيرة ، بين الكتب القديمة و دفاتر الملاحظات، نما فيه شغف آخر يواكب حداثة العصر ، شغف بالذكاء الاصطناعي كنبعٍ صامتٍ ينبعث من أعماق الفضول. لم يكن مجرد تقنية أو أداة، بل بوابة لعالمٍ جديد، حيث يمكن للآلة أن ترى ما تعجز عنه العين البشرية، وتسمع ما يخفى عن حواس الإنسان. كانت ترى في **الذكاء الاصطناعي رفيقاً للطب**، رفيقاً يمكنه أن يعانق الدقة مع الحنان، والقدرة الحاسوبية مع حسّ الرحمة .. تتخيل أجهزةً قادرة على تحليل ملايين البيانات في ثوانٍ، تكشف عن أمراض قبل أن تظهر أعراضها، تحدد العلاج الأمثل كما لو أن الجسد نفسه يبوح بأسراره ، كما تتخيل الروبوتات الجراحية تتحرك بدقةٍ لا تقدر عليها اليد البشرية، كأنها أصابع الإله نفسها التي تتلمس العظام والأنسجة برقة وحذر، هي تعلم أن هذا المستقبل ليس خيالاً، بل مسارٌ محتوم للطب الذي سيجمع بين العلم و الفن والذكاء الاصطناعي.

مع كل خلية درستها ، و في كل موجة دماغية رصدتها، شعرت أن الذكاء الاصطناعي سيكون أداة لتفكيك أسرار الإنسان، لا ليستبدل الطبيب، بل ليزيد من عمق فهمه.

كانت تتخيل اليوم الذي يجلس فيه الطبيب أمام شاشة تحليلية، والآلة تهمس له بالتشخيص الدقيق و العلاج المناسب ، تماماً

كما كان أجدادها يتنبؤون بالنجوم ويقررون أقدارهم، لكن هذه المرة بالعلم و الآلة معاً.

وهكذا، صار اهتمامها بالذكاء الاصطناعي امتداداً لشغفها بالنفس البشرية : فهمٌ أعمق، رؤية أشمل، قدرة على الشفاء بطرق لم تكن ممكنة من قبل .. و بدأت ترسم حلماً جديداً ، التعاون مع مبرمجين لتطوير ذكاء اصطناعي يلعب دور معالج نفسي يحاور المرضى ، يشخصهم و يعالجهم .. يرافقهم في كل ثانية من حياتهم حتى وفاتهم ، فهو لا يحتاج أكثر من مساحة صغيرة على ذاكرة هاتفهم !! و قررت أن تسمي ذلك الذكاء الاصطناعي النفسي (**تسينجي**) .. كمن تسمي جنينها في رحمها قبل أن يولد ..

الفصل السادس

النفق الكمّي ..

كاليفورنيا / سان دييغو ..

خلال الأيام اللاحقة ..

التحقيقات مع المشتبهين ..

القاتل الأنيق ؟!

جلس **خوان غارسيا** أمام طاولة التحقيق، بدلة داكنة أنيقة تفوح منها رائحة عطر باريسي باهظ الثمن، ساعة سويسرية ذرية تمسك مواعيد العمل من عنقها .. أما يديه فلم تكفا عن الحركة ، أصابعه تدق على الخشب بإيقاع متوتر، وعيناه تفرّان من المحقق نيكولاس إلى الباب كأنه يبحث عن مخرج ثم تعودان من جديد كبندول الساعة ..

= سيد غارسيا ..

قال نيكولاس بصوت بارد ..

= أنت تعلم أننا نحقق في وفاة الشاب المبرمج كيفين أستور..

= أجل .. وفاته كانت مفاجئة للجميع .. مسكين لا يزال في مقتبل الحياة ..

= شعور إنساني نبيل منك ، لكن تحرياتنا أفضت إلى كونك آخر من تشاجر معه علناً قبيل وفاته ..

ابتسم غارسيا ابتسامة مشدودة، وقال :

= تشاجر؟ لا، لا .. لقد اختلفنا فقط ... ذلك يحدث في الصفقات الكبرى ..

= و أين كنت ليلة أمس الأول ؟!

= في تلك الليلة .. آه تذكرت... كنت في عشاء عمل طويل في مطعم **لا كاسا بيانكا** .. يمكنك أن تسأل أي نادل هناك. بقينا حتى الفجر نتحدث ونوقع عقوداً .. لم أغادر ولو لدقيقة.

فتح نيكولاس دفتره وقلب الصفحات .. كانت المعلومات الأولية تؤكد بالفعل وجوده في المطعم .. الكاميرات الأمنية سجلت دخوله عند التاسعة مساءً وخروجه مع طلوع الشمس.

لكن نيكولاس لم يرفع عينيه عن الرجل وهو يقول :

= الحجج الصلبة لا تمنع النفوس التي لا تقبل الرفض من الانتقام ، سيد غارسيا ، فكما تعلم هنالك ما يسمى قتل بالوكالة ..

ابتلع غارسيا ريقه، وازدادت يده رعشةً لم تخف عن عين المحقق .. فاغتنم الأخير الوضع و زاد من ضغط الاستجواب عليه علّه يوصله إلى انهيار فاعتراف ، لذا واجهه مباشرةً بتسجيل المكالمة الأخيرة مع كيفين و تهديده له ، هنا احمرّ وجه غارسيا و رفع صوته بعصبية :

= لقد أخذتم كلامي بمحمل خاطئ ! لم أهدده، بل نصحته. أردت له الأفضل، أن يقبل عرضاً يغيّر حياته. كنت أرى أنه سيغرق وحده، بينما كان بإمكاني أن أرفعه إلى القمة ..

أدار نيكولاس رأسه ببطء، و عيناه تواصلان اختراق دفاعاته النفسية :

= لكن كلماتك بدت كسياط غلفتها بغلاف من النصح .. ألم تقل له : *(تذكر أنك في سوق لا يرحم أحداً و الحسابات الخاطئة لها نتائج وخيمة)* ..

هز غارسيا كتفيه بقوة، وقال :

= كنت أعنيها حرفياً .. السوق لا ينتظر أحداً .. إذا أضاع الفرصة اليوم، فلن يجدها غداً .. لا أكثر، لا أقل ..

دوّن نيكولاس ملاحظة قصيرة على الهامش، ثم صمت عمداً، تاركاً الهدوء يطبق على المكان كي يربك غارسيا أكثر .. و بالفعل أخذ توتر غارسيا يتضاعف ، كأنه يشعر أن كل كلمة تخرج من فمه يمكن أن تتحول إلى خنجر يطعن في مصداقيته ..

قرر نيكولاس أخيراً أن يضعه أمام امتحان حاسم : **جهاز كشف الكذب** ، فلم يمانع غارسيا على الإطلاق ..

جلست ممرضة لتركب الأقطاب على صدره ومعصميه، فيما حاول غارسيا أن يبدو ثابتاً .. لكن عرقه خانه و بدأ يتصبب، كما أنّ تنفّسه صار أثقل.

بدأت الأسئلة تنهال عليه كالانهيارات الثلجية :

= هل كنت في شقة كيفين ليلة وفاته ؟

= لا ..

= هل هددت كيفين بقتله ؟

= على الإطلاق ..

= هل أنت متورط بأي شكل من الأشكال في وفاته ؟

= أبداً !!

كانت الإبر على الشاشة تتحرك لكنها لم تقفز .. الجهاز سجّل توتراً واضحاً، لكن بلا كذبة صريحة .. خرج غارسيا من الاختبار منهكاً، كأنه عبر نفقاً مظلماً، لكن خرج منه بريئاً على الورق ..

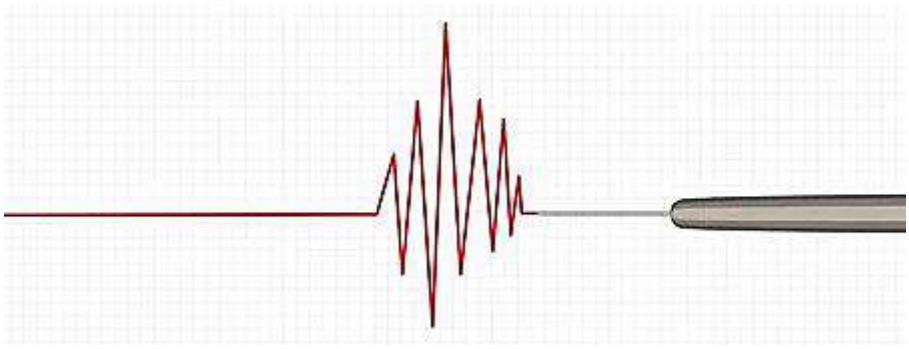

أغلق نيكولاس الملف وقال :

= جهاز الكذب كان في صفك سيد غارسيا ، لكنه لا يبرّئك بشكل مطلق .. فالتحقيق لا يزال مستمراً .. يمكنك الانصراف الآن ، و أتمنى ألا نلتقي هنا مجدداً ..

انتقل مساعدوه إلى فحص السجل الهاتفي الخاص بغارسيا .. آلاف المكالمات المتناثرة عبر الأسابيع الماضية، كلها رتيبة و متوقعة : اجتماعات مع شركاء، رسائل صوتية لزوجته، اتصالات مع موظفي شركاته. لم يظهر أي اتصال مريب، لا

برقم مجهول ولا بشخص غريب.

جلس نيكولاس يراجع التقارير، شعر بالخذلان .. كان يتوقع أن يجد ثغرة، همسة عابرة، رقماً مشبوهاً، لكن السجل بدا كواجهة زجاجية لامعة لا خدش فيها.

قال لمساعده :

= أحياناً، حين يكون السجل نظيفاً أكثر من اللازم ... يكون هذا هو الدليل بعينه ..لكن حتى الآن، ليس لدينا ما يكفي كي نضع غارسيا في قفص الاتهام المباشر ..

في الاجتماع الليلي مع فريقه، قال نيكولاس بحزم :

= قد نكون تأكدنا من وجود غارسيا في المطعم تلك الليلة، و صحيح أنه مرّ بجهاز كشف الكذب بسلام، لكن غارسيا رجل لا يُطمأن إليه .. لو كان متورطاً، فسوف يحاول أن يُبعد الشبهات عن نفسه بطرق أخرى .. قد يتصل بوسيط ، قد يرسل رسالة مشفرة ، قد يزلّ لسانه بكلمة .. لذا أوصي بوضع هاتفه تحت المراقبة، و متابعة تحركاته عن كثب على مدار الأيام المقبلة ..

و مرت الأيام ... لكن للأسف ، كانت النتيجة مخيبة لآمال المحقق : لا شيء هام يذكر .. كل ما ورد من هاتفه اتصالات عائلية عابرة أو اجتماعات عمل .. لم يظهر أي أثر يربطه بالموت الصامت الذي غيّب كيفين.

جلس نيكولاس في مكتبه، يدخن سيجارته ببطء، والدخان يتلوى أمام عينيه مثل علامات استفهام معلّقة.

تمتم لنفسه :

= إذا كان غارسيا بريئاً، فلماذا يبدو كمن يخفي شيئاً ؟ وإن كان مذنباً ، فكيف يتقن إخفاء تورطه بهذا الكمال ؟

كان يعلم أن اللعبة لم تنته بعد، وأن اسم غارسيا سيظل على الطاولة، ثقيلاً كالحديد، حتى تُفتح نافذة جديدة تقود إلى الحقيقة.

****

المجرم السايكوباثي ؟!

دخلت **كارمن رولاند** غرفة التحقيق كأنها تدخل مسرحاً، خطواتها محسوبة، شعرها المنسدل يلمع تحت الإضاءة الباردة، وعيناها العسليتان تحدّقان في الجميع بنوع من التحدي .. جلست على الكرسي ببطء، كمن يتعمّد إشعال الفضول حوله أو يستمتع بكونه محط اهتمام الآخرين ، و الغريب أنها لم تبدِ أي مشاعر تجاه موت كيفين أو تجاه استدعائها إلى التحقيق !!

قال نيكولاس، وهو يفتح ملفاً ثقيلاً أمامه :

= آنسة رولاند، وجودك هنا ليس إجراءً اعتيادياً .. بين يدي رسائل تهديد صريحة أرسلتِها إلى كيفين، آخرها ليلة وفاته ، هل تنكرين ذلك ؟ ..

ابتسمت ابتسامة صغيرة، خليط من الدهاء والاستهزاء :

= تهديد !؟ أنتم الرجال تقرؤون كل شيء على أنه عنف. كانت مجرد صرخات قلب عاشق .. هل عوقب أحد يوماً لأنه أحب أكثر مما ينبغي ؟

لكن قلب نيكولاس لم يهتز بكلماتها. كان يعرف هذا النوع من النساء : خليط من الافتتان والجنون، حيث يصبح الحب سلاحاً قاتلاً.

بدأ الاستجواب يتصاعد .. واجهها نيكولاس بسجلات المكالمات : العشرات منها لم يرد عليها كيفين، ثم رسائل حب طويلة تنقلب فجأة إلى وعيد : *(إن ابتعدت عني سأجعل حياتك جحيماً)* ..

قالت بصوت مرتجف هذه المرة و كأن القناع تبدل على وجهها :

= كنت خائفة .. كان يبتعد عني يوماً بعد يوم .. لم أفكر أبداً أن أؤذيه، فقط أردت أن يظل قربي ..

رفع نيكولاس حاجبه :

= لكن الرسالة الأخيرة لم تكن خوفاً، بل تهديداً صريحاً .. قلتِ بوضوح : *(لن يفرق بيننا إلا الموت)* ..

ساد الصمت للحظة. عيناها هربتا نحو المصباح المعلق في سقف الغرفة ، ثم رفعت رأسها فجأة وقالت :

= ربما قلت ذلك ... لكن الكلمات في العاطفة لا تعني دائماً ما تبدو عليه .. أنا أحبه بجنون و لا يمكن أن أؤذيه .. بل مستعدة أن أقتل من يفكر بإيذائه ..

هذا الاعتراف الصريح بالاستعداد للقتل لم يكن في صالحها. نيكولاس كتب في دفتره بخط صارم : (كارمن : عقل متأرجح بين العاطفة والتهديد ، شخصية غير مستقرة و مستعدة للقتل) ..

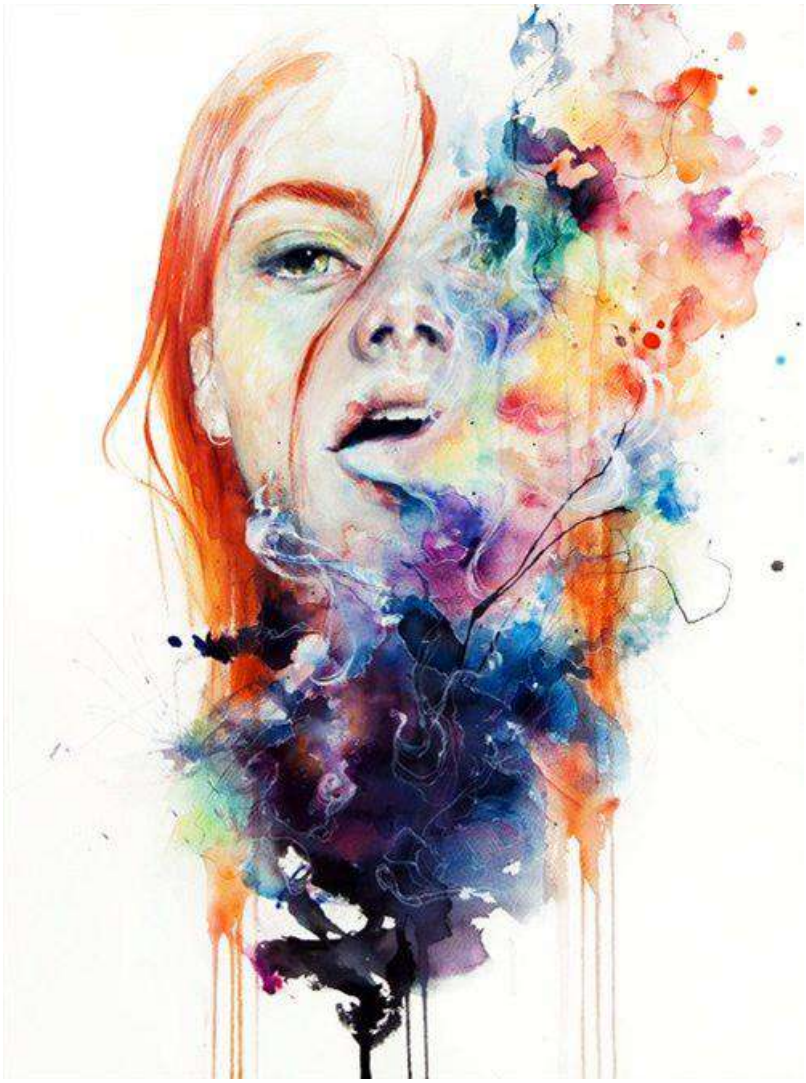

صمت قليلاً ثم سألها بشكل مباشر :

= أين كنتِ في ليلة وفاة كيفين، على الساعة الثالثة فجراً ؟

همست كارمن بقلق :

= في شقتي ... بمفردي .. أرسلت له الرسالة ثم بكيت و بكيت حتى غفوت ..

تجمّد القلم في يد نيكولاس .. لم تكن هناك أي حجة غياب حقيقية .. لا شهود، لا كاميرات، لا رفيقة سهر .. وحدها مع هواجسها.

ارتبكت فجأة، وأمسكت يديها كمن يحاول تهدئة زلزال داخلي .. ثم أجهشت بالبكاء، و صرخت :

= نعم، كنت غاضبة ! كنت مجنونة ! لكنه لم يفهم ... لم يفهم أبداً أنني أردت فقط أن أُنقذه من وحدته !!

بعد ساعات من الضغط النفسي الذي لم يسفر عن جديد ، لم يتبقى هنالك ما يقال ، سألها نيكولاس إن كانت توافق على الخضوع لجهاز كشف الكذب ، فلم تتهرب ..

جلس نيكولاس خلف الزجاج يراقب المؤشرات، بينما تولّى أحد المحققين طرح الأسئلة ..

كانت الخطوط على الشاشة تهتزّ باضطراب، لكنها لا ترتفع إلى حد الكذب الواضح، ولا تستقر بما يكفي لتُفسَّر صدقاً كاملاً .. نتائج رمادية، منطقة غائمة بين النفي والإقرار.

خرجت كارمن من الغرفة وملامحها مزيج من انتصار زائف وخوف دفين .. رفعت ذقنها وقالت لنيكولاس بجرأة مصطنعة :

= أرأيت ..حتى آلاتكم لم تثبت شيئاً عليّ .. فأنا مجرد عاشقة بريئة ..

أجابها ببرود و عيناه لا ترمشان :

= الآلة لم تبرّئك ... فقط كشفت أنكِ تقفين في المنتصف بين الحقيقة و الكذب ، و سنرى ما ستحمله تحرياتنا عنك ..

وفي دفتر ملاحظاته، كتب جملة واحدة :

(نتائج غير حاسمة – كارمن لا تزال في محرق الاشتباه و بقوة) ..

و قبل أن يسمح لها بالانصراف ، قرر أن يخضعها لفحص نفسي أولي عند أخصائي شرعي ليتأكد من مجموعة شكوك تساوره ..

جلست في غرفة بيضاء، و أخذت أسئلة الطبيب تتناثر عليها كالإبر :

= هل تسمعين داخل رأسك بعض الأصوات أحياناً ؟

= أحياناً قليلة ..

= هل شعرتِ بأنكِ تملكين حقاً خاصاً في حياة كيفين ؟

سرحت في الفراغ قليلاً ، ثم أجابت بجرأة غريبة :

= كيفين كان لي ... نعم ، لي .. لم يكن لأحد الحق في أخذه مني ..

جاء التقرير الأولي ليؤكد شكوك نيكولاس : اضطراب نفسي واضح، نزعة تملّك خطيرة، سلوكيات قهرية .. بحاجة لعلاج نفسي بلا شك ..

لكن... لم يكن هناك أي دليل مادي يربطها بالجريمة .. لا بصمات، لا آثار دخول .. فقط كلمات سامة و تهديدات شفهية كخناجر مسمومة ..

انصرفت كارمن .. في حين أوصى نيكولاس بمراقبتها على مدار الساعة : هاتفها، تحركاتها، لقاءاتها .. فشخصية غير متزنة نفسياً ككارمن لا بد أن تزل منها كلمة أو حركة تكشف تورطها ، سواء من منطلق الفخر أو الندم ..

مرت الأيام، وكانت كارمن تتصرف كمن يرقص على حافة الجنون. مكالمات متكررة لأصدقاء تشكو فيها أن الشرطة تشك فيها بلا سبب ، رسائل إلى معارفها بأنها الوحيدة التي أحبّت كيفين حقاً ..

لكن لم يخرج من تحت المراقبة أي دليل يشير إلى تآمر، أو محاولة لإخفاء أثر .. بدا أن ذنبها – إن وُجد – قد يظل محصوراً في قلبها المضطرب و عقلها المريض فقط.

جلس نيكولاس في مكتبه، يقرأ التقارير الجديدة، وأغمض عينيه للحظة :

= كارمن ... إما أنكِ قاتلة تتملص كالزئبق من الدليل... أو مجرد عاشقة تحولت مأساتها إلى لعنة قد تنتهي بها إلى أقبية

السجون لسنوات ..

وفي كلا الاحتمالين، كان يعرف أن اسمها سيظل يتردد كظل ثقيل في أروقة التحقيق في جريمة غامضة لم يمرّ عليه مثلها طوال سنوات خدمته الطويلة .. جريمة غير مؤكدة ، فلا سلاح معروف ارتكبها و لا آلية مفهومة تفسر الوفاة فيها .. مشتبه بهم كثر يمتلك كل منهم دافعاً قوياً للقتل .. لكن لكل منهم حجة غياب قوية أو نظيف تماماً من أي دليل يدينه .. !!

****

هل يصبح الدم ماءً ؟!

دخل **هنري** غرفة التحقيق كالعاصفة .. خطواته كانت سريعة، متوترة، وصوته سبق جلوسه :

= هل تنظرون إليّ كجاني بالفعل ؟ أنا أخوه !! الدم نفسه، الروح نفسها !! كيف يخطر في عقولكم أنه يمكنني أن أقتله ؟

أمسك نيكولاس قلمه بهدوء، وأجاب ببرود محسوب :

= في قضايا القتل ، القرب لا يحمي أحداً... بل على العكس يجعله موضع الشبهة الأولى .. هذا هو البروتوكول ، لذا لا تأخذ الموضوع على محمل شخصي سيد هنري ..

تصلّبت ملامح هنري، كمن يتلقى طعنة غير متوقعة في قلب لم يندمل جرح الفقد فيه بعد .. في حين تابع المحقق :

= لنبدأ على الفور كي ننتهي بأسرع وقت .. أعلم أن لديك

قضايا و مرافعات .. لذا أخبرني سيد هنري أين كنت ليلة حدوث الوفاة .. ؟

أخرج هنري منديله، مسح جبينه المبلل بالعرق وقال :

= في تلك الليلة ... كنت في بار **ذا ميرور** وسط المدينة. موكلي، رجل أعمال متورط في قضية ابتزاز، أصر أن نلتقي بعيداً عن العيون .. جلست معه من الحادية عشرة ليلاً حتى الثانية فجراً ثم عدت إلى منزلي .. عشرات الزبائن شاهدونا، والنادل يعرفني جيداً .. هناك كاميرات مراقبة أيضاً تثبت أنني كنت هناك طوال الوقت ..

رفع نيكولاس حاجبيه قليلاً، ثم قلّب الملف أمامه. بالفعل، تقرير أولي من الشرطة أكّد وجود هنري في البار، وصوره في الكاميرات أظهرت جلوسه مع رجل في منتصف العمر، يتحدثان باستغراق على طاولة جانبية.

قال المحقق :

= مكان صاخب كالحانة لا يصنع براءة كاملة .. بإمكانك المغادرة لدقائق والعودة .. الكاميرات لا تلتقط كل لحظة.

ابتسم هنري بمرارة :

= أتظن أنني سأترك عميلي وأهرب في منتصف المفاوضات لأقتل أخي؟! ثم أعود كأن شيئاً لم يكن ؟

انحنى هنري إلى الأمام، صوته اختلط بالغضب والحزن :

= لقد وجدت جسده بنفسي .. لم أصدق أنه رحل عني إلى الأبد .. كدت أختنق بدموعي و حسرتي .. والآن... بدلاً من أن أُعزى ، أُعامل كمجرم !!

ظل نيكولاس صامتاً للحظات، يراقب لغة جسده .. سجل في دفتره : (الحزن حقيقي... لكن ذلك سهل على محامي احترف لعبة التحكم بالمشاعر ..) ..

أخرج نيكولاس رسائل البريد الإلكتروني بين الأخوين، بعضُها مليء بالجدل الحاد حول تطبيق فوتون .. قرأ بصوت مرتفع :

(كيفين ، بع التطبيق على الفور قبل أن يدمرك .. لن تُسيطر عليه وحدك .. السوق محيط عميق و قروشه ستنهشك .. أنت تمشي بنفسك إلى حتفك .. عُرضت عليك ملايين الدولارات ستمنحك حياةً رغيدة حتى تموت ، ما الذي تحتاجه أكثر من ذلك ؟!) ..

ثم قال :

= لغة هذه الرسائل أقرب إلى التهديد منها إلى النصيحة ..

احمرّ وجه هنري وصاح :

= كنت أحاول إنقاذه من جنونه !! كنت أخشى أن يُحطّمه السوق أو يدمر نفسه .. أي أخ لا يحاول حماية أخيه ؟!

ساد الصمت للحظات ، ثم سأل المحقق بشكل روتيني :

= هل تمانع في الخضوع لجهاز كشف الكذب ؟

= على الإطلاق ..

جلس هنري أمام جهاز كشف الكذب متبرماً .. في حين بدأت الأسئلة تتوالى عليه :

= هل قتلت أخاك كيفين ؟

= بالطبع لا ..

.

.

= هل فكرت يوماً في التخلص منه لتستأثر بالميراث ؟

= إطلاقاً !!

.

.

النتائج أظهرت استقراراً عاماً، مع قفزات في معدل النبض كلما ذُكر التطبيق أو الميراث. فسّرها الخبير بأنها توتر شديد مرتبط بالموضوع ، لا دليل صريح على كذب.

خرج هنري كما دخل متجهماً، قال وهو يغلق الباب :

= أنا أخ الضحية، لا عدوه .. لكن يبدو أنكم نسيتم ذلك ..

رغم حجّة غيابه المدعومة بالكاميرات والشهود، أوصى نيكولاس بمراقبته سراً بدوره .. لكن لم تُسجل عليه أي تحركات مشبوهة، سوى تردده الدائم على قبر كيفين، حيث يجلس هناك لساعات يهمس بكلمات غير مفهومة.

قرأ نيكولاس التقرير النهائي عنه بصوت منخفض :

(إن لم يكن الجاني ... فهو ما زال مفتاحاً من مفاتيح هذا اللغز ..) ..

****

نرسيس و بحيرة الحيرة ..

لم يختلف مشهد اقتحام **أوستن أولافسين** لغرفة التحقيق عن مشهد كارمن ، فهما من طينة الغرور ذاتها .. ممثل نرجسي يرتقي إلى خشبة المسرح .. ابتسامة متعالية، بدلة مصممة بعناية، هاتفه الذكي بآخر إصدار لا يفارق يده .. جلس على الكرسي وألقى نظرة خاطفة على نيكولاس، وكأن المحقق موظف إداري عابر.

قال بصوت واثق :

= دعنا ننهي هذا سريعًا، لديّ اجتماع مع فريق التطوير العالمي الخاص بي ..

رد نيكولاس ببرود و امتعاض من هذا الطاووس الذي جلس أمامه :

= هذا شيء نحن نقرره سيد أوستن لا أنت... على كل حال يمكنك أنت أن تختصر الطريق علينا و على نفسك .. فالأمر يتوقف على مدى تعاونك ..

أخرج نيكولاس ملفًا، فيه مقالات وتصريحات سابقة لأوستن:

(لن أسمح لهواة أن يلوثوا ساحة الذكاء الاصطناعي ... السوق للمحترفين أمثالي) ..

رفع المحقق عينيه :

= تصريحاتك عن كيفين واضحة .. كنت تعتبره تهديدًا مباشرًا لمكانتك ..

ضحك أوستن ضحكة قصيرة متعجرفة :

= كيفين !؟ إنه مجرد هاوٍ صغير .. لولا الحظ و بعض الخوارزميات المسروقة من مقالات أكاديمية، لما عرفه أحد. تهديد ؟ أنا التهديد ذاته .. أنا معيار الصناعة ..

تجاهل نيكولاس غروره، لكنه دوّن ملاحظة جانبية في مفكرته : (نرجسية مفرطة... قد تتحول إلى دافع قتل ..)

حين سأله عن ليلة الوفاة، ارتسمت على وجه أوستن ملامح الاستخفاف :

= كنت في السينما، **صالة أركاديا الفاخرة** .. شاهدت فيلمًا طويلاً، ثلاث ساعات كاملة تروي قصة بطل خارق .. إنه نوعي المفضل من الأفلام فأنا في مجال عملي أعتبر واحداً منهم .. و بإمكانكم سؤال موظفي الاستقبال أو مراجعة الكاميرات، سيؤكدون أنني كنت هناك حتى الرابعة صباحًا ..

استفسر نيكولاس بنبرة مشككة :

= هل كنت وحدك ؟

= بالطبع .. لا أحتاج إلى صحبة لأستمتع .. وجود الآخرين إلهاء ... أنا أُفضّل تركيز العباقرة ..

هذا الجواب، رغم غروره المفرط ، جعله يبدو أكثر اشتباهاً ، وأقل دعمًا بحجّة غياب محكمة. نعم، الكاميرات أظهرت دخوله وخروجه، لكن السينما مكان معتم، والزمن واسع للحركة.

اقترب نيكولاس، خفّض صوته وقال :

= أتعلم ما يثير فضولي ؟ شاب يموت فجأة، بلا سبب طبي، بلا أثر جريمة ، بعد أيام من نشره مقالاً عن تطبيقه الجديد **فوتون** ، الذي كما نعرف كلانا سيشكل تهديداً لتطبيقك **أندروميدا** .. أليس في الحكاية إنّ أو ربما أحد أخواتها ؟!

تقلصت ابتسامة أوستن لحظة، ثم أعاد رسمها ببطء :

= المصادفات جزء من الحياة، أيها المحقق .. لو أردت قتله لفعلت .. لكن لا علاقة لي بما حدث .. كنت بعيداً و حجة غيابي واضحة و لا تحتاج تأويلاً ..

كتب نيكولاس في دفتره : (اعتراف مبطن بالقدرة ...) ..

خضع أوستن بدوره لجهاز كشف الكذب .. و كانت النتائج مربكة : صدق في تفاصيل أمسيته في السينما، لكن توتر واضح عند ذكر اسم كيفين أو تطبيق فوتون.

غادر الغرفة واثق الخطوة، وقال وهو يغلق الباب بابتسامة ساخرة :

= إن عجزت عن معرفة القاتل لا تتردد في طلب مساعدتي،

سأبرمج لك خوارزمية أفضل من تحقيقك للبحث عنه ..

بقي نيكولاس يحدق في الباب بعد رحيله و هو يفكر بحيرة : ما هو انعكاس نرسيس هذا في البحيرة ؟ ذئب مفترس قتل بلا رحمة .. أم طاووس متباهٍ متخم بالغرور ؟!

****

الشبح ..

جلس نيكولاس في غرفة العرض ، أمامه شاشة كبيرة تتكرر عليها نفس اللقطة : رجل بملابس داكنة، قناع أسود يغطي نصف وجهه، يتحرك بخفة عبر الشارع المؤدي إلى حيّ كيفين .. لكن الأهم في كل حكايته أن كاميرا المبنى الذي يقيم فيه الراحل كيفين التقطته و هو يدخل المبنى بالفعل بحدود الساعة الثانية فجراً .. و للدهشة الشديدة ، فهو لم يغادره بعدها أبداً !! فأين تبخر ؟! هل هو من سكان المبنى ، أم أنه بقي في منزل كيفين حتى اكتشاف الجريمة ثم خرج مع رجال الشرطة ؟ !!.

قال أحد المحققين :

= كاميرا البقالة التقطته أيضاً، لكنه لا يلتفت أبداً .. كل ما يظهر هو قامة متوسطة، خطوات ثابتة، لا شيء مميز ..

أعاد نيكولاس الفيديو عشرات المرات، يبحث عن تفصيل صغير، إيماءة، ميل في الكتف، عرج خفيف ربما .. لكن لا

شيء .. بدا الرجل كما لو أنه تمرّن طويلاً على أن يكون شبحاً يمشي بين البشر.

أمر نيكولاس بتجميع تسجيلات من كل الكاميرات المحيطة : محطة الوقود، المخبز، الموقف العام .. و النتيجة كانت صادمة :

الرجل الملثم كان يظهر للحظات، ثم يختفي في الزوايا، كما لو أنه يعرف مسبقاً أين تقع كل عدسة مراقبة.

قال الخبير الجنائي :

= إما أن يكون محترفاً درس المكان بدقة ... أو مجرد صدفة غريبة غير معقولة ..

لم كن نيكولاس ممن يؤمنون بنظرية المصادفة في مجال عمله .. كتب في دفتره : (معرفة مسبقة بالحي ... لا يمكن أن تكون عابرة ..) ..

تم استجواب بعض السكان الذين كانوا ساهرين في تلك الليلة .. قال أحدهم :

= أعتقد أنني رأيت شخصاً بهذه المواصفات من بعيد، لكن لم أتبين ملامحه ..

و قال آخر :

= نعم أذكره .. اعتقدت أنه أحد الشباب المتنكرين للمرح، لم أعره اهتماماً .

حتى الشهود كانوا عاجزين عن إضافة أي جديد .. بدا الرجل الملثم وكأنه أُسقط في الحي من السماء ثم ابتلعته الأرض.

تم تكبير الصور، استخدام برامج حديثة لتحسين الوضوح، تحليل المشية بتقنيات الذكاء الاصطناعي.

النتيجة ؟ احتمالات متباينة : قد يكون رجلًا في الثلاثينات، أو في الأربعينات. قد يكون طوله 175 سم، أو 180.. كل خوارزمية أعطت جواباً مختلفاً.

تنهد نيكولاس وهو يتأمل التقرير :

= لدينا كل شيء ... إلا الحقيقة .. بدأت هذه القضية تستفزني بحقّ ..

بعد أيام من جمع المعلومات و الفيديوهات، خرج نيكولاس بخلاصة موجعة :

= الرجل الملثم قد يكون مفتاح الجريمة ... أو مجرد ظل عابر .. لكنه يظل اللغز الأكثر عناداً .. لا بصمات، لا آثار، لا اسم .. إنه بلا شك المشتبه فيه الأول في الجريمة .. فهو الوحيد من بين بقية المشتبه فيهم الذي دخل ذاك المبنى ليلة الوفاة و في توقيت مناسب للغاية ، ربما كان واحداً منهم و قد أخفى ملامحه ، أو عميلاً لديهم مهمته قتل كيفين ، أو شخصاً لا علاقة له بهم و غايته الانتقام من كيفين لسبب مجهول ، أو لا علاقة له بالوفاة من الأساس .. كلها أسباب منطقية للغاية و لكن ينقصها الشيء الأهم : هوية ذاك الشبح ؟

****

جلس نيكولاس في مكتبه وقد تراكمت أمامه الملفات كأبراج من ورق، شاهقة باردة، تذكّره ببرودة تلك الجثة التي بدأ منها كل شيء .. كان الليل ثقيلاً، يوشك أن يطبق على صدره، والمصباح الأصفر فوق رأسه يرسم هالة واهنة لا تضيء بقدر ما تفضح الظلال .. أخذ يقلب أوراق التحقيقات ببطء، يقرأ أسماء المشتبه بهم كما لو يقرأ من سفر الجريمة : **هنري، كارمن، خوان، أوستن ... ثم ذلك الرجل المجهول الذي لا وجه له.**

كل واحد منهم يقف على حافة الدائرة، يلوّح بدافع قوي للقتل، ثم يلوذ بحجة غياب صلبة أو فراغ مطلق من الأدلة. إن هذه القضية اشبه **بالنفق الكمي في الفيزياء** ، يدخل منه

المشتبه به بقوة ثم يخرج في مكان آخر بريئاً من أي تهمة !

تمتم نيكولاس وهو يضغط صدغيه بيدين متعبتين : (هل نحن أمام جريمة حقيقية، أم أمام موت طبيعي يصرّ على التنكر في ثوب اللغز؟) ..

كان يعلم أن الأطباء لم يحسموا الأمر : لا سموم، لا اعتداء، لا سبب قاطع .. الموت بدا وكأنه جاء طبيعياً، ومع ذلك... لم يكن طبيعياً في عينيه .. فكيفين لم يكن مجرد شاب، بل كان مشروع ثورة، برمجياته تهدد امبراطوريات بأكملها. مثل هذه العقول لا ترحل هكذا في ريعان شبابها ببساطة.

بدأ يشعر أن القضية تتجاوز حدود الطب والجنائية، وأنه أمام معضلة وجودية : (هل الموت حدث فيزيائي نرصده و نقيسه ؟ أم أنه فكرة، يُمكن أن تُصاغ وتُدار مثل برنامج خفيّ يكتب نفسه في الظلام ؟)

كل دليل مادي يذوب بين يديه كما يذوب الرمل بين الأصابع. وكل مشتبه به يتمايل بين المذنب والبريء، ككفة ميزان لم يستقر عليها ثقل الحقيقة بعد.

إنه نوع القضايا الذي يستهويه في العادة ، غامض ، يستفز العقل كي يفكر خارج الصندوق .. لكن هذه المرة لا صندوق موجود بالأساس كي تفكر داخله أو خارجه .. الجريمة ليست جريمة ربما .. و كل مشتبه به بريء بالحجة .. و المتهم الأول شبح دخل المبنى و لم يخرج منه ، و لا خيط يربطه بعالم الواقع على الإطلاق .. !!

الفصل السابع

الفقاعة الباردة

كاليفورنيا / سان دييغو ..

بعد أسابيع ..

جلس هنري أستور في مكتب المحاماة الهادئ، حيث تصطف الملفات على الرفوف كما تصطف الأسرار في قبور مغلقة .. كل شيء يوحي بالجدية الصارمة التي اعتادها بحكم عمله.

وعلى الطاولة أمامه وُضعت أوراق الميراث، محاطة بخاتم رسمي وبتوقيع القاضي الذي لم يدرِ – وربما لم يهتم – أن هذه الأوراق تحمل في طياتها ما يشبه القنبلة الموقوتة في حياة رجلٍ لم يتجاوز الثلاثين.

مدّ يده ببطء، وأخذ يقلب الصفحات، عيناه تجريان فوق السطور القانونية الجامدة، لكن عقله يقرأ شيئًا آخر، شيئًا أكثر قسوة : كل كلمة هنا تقول له بوضوح إن أخاه الأصغر، كيفين، لم يعد موجودًا، وإن ما تبقى منه ليس سوى حسابات مصرفية، عقار صغير في سان دييغو، وبراءة اختراع لتطبيق اسمه فوتون.

ذلك الاسم وحده جعل قلب هنري يخفق بسرعة غير مريحة. فوتون لم يكن مجرد برنامج؛ كان روح كيفين، مشروعه الذي كان يتحدث عنه كما يتحدث عاشق عن حبيبته، مزيجًا من الحلم والدمع والكدح الطويل. كان كيفين يرفض دائمًا فكرة بيعه، بل كان يضحك ساخرًا حين يسمع عروض الشركات العملاقة : (لا، هنري، فوتون ليس سلعة ... إنه ابني) ..

استعادت ذاكرته المشهد بحدة : جلسة عائلية قبل ستة أشهر، حين حاول هنري أن يقنعه بأن يقبل عرضًا مغريًا من شركة تقنية شهيرة. كان كيفين قد صرخ فجأة، بعنف غير معهود منه :

(أنت محامٍ، تفكر بالعقود والأرباح .. لكنني لست مثلك .. أنا أبحث عن معنى، عن خيط خفي يصل العقل البشري بالآلة .. فوتون ليس صفقة، إنه رسالة ..)

والآن، لسخرية القدر، وقعت (الرسالة) بين يدي رجل لا يرى العالم إلا كسلسلة من الفرص والعقود والأرباح .. بين يدي محامي الشيطان ربما ..

أسند هنري ظهره إلى الكرسي، وأغلق عينيه لثوانٍ، لكن الصفحات ظلت هناك، تلوح في الظلام خلف جفونه. كان يستطيع أن يشعر بوزنها، لا كأوراق وراثة، بل كحكم

قضائي صامت يخيّره بين أن يكون وفيًا لأخيه الراحل، أو أن يكون وفيًا لطبيعته الباردة كمحامٍ التي لا تؤمن إلا بالواقعية.

هل أترك التطبيق حبيس الأدراج احترامًا لرغبة ميت ؟

أم أطلقه إلى السوق، وأحوّل حلمه إلى ذهب ؟

الجواب لم يكن بسيطًا. هنري لم يكن رجلًا شريرًا، لكنه لم يكن أيضًا مثاليًا. نشأ دائمًا في ظل أخيه العبقري، يتأمل الفارق بينه – المحامي المجتهد الذي يحفظ القوانين – وبين كيفين الذي اخترع قوانينه الخاصة وكتبها بلغة الأكواد. لم يعترف أبدًا أمام أحد، لكنه في أعماقه كان يشعر بمزيج معقد من الحب والغيرة.

فتح عينيه مجددًا، نظر إلى ختم القاضي الأحمر، ثم مدّ يده و مضى على الأوراق .. كان الإمضاء أنيقًا، محسوبًا، ككل ما يفعله هنري. لكن حين انتهى، شعر كأنه يطعن قلب أخيه المتعب للمرة الثانية.

غادر المكتب بخطوات ثقيلة، والسماء الرمادية فوق سان دييغو بدت كأنها تشيّعه بصمت. في جيبه نسخة من الوثائق، وفي ذهنه سؤال واحد يطن بلا توقف :

= ماذا سأفعل الآن بفوتون ؟!

لم يجب عن السؤال، لكنه شعر أن الجواب قادم، كإعصار يلوّح في الأفق و يقترب من شاطئ الواقع رويداً رويداً ..

بالفعل ، لم تمضِ أسابيع كثيرة على وفاة كيفين حتى تسربت أخبار أربكت الوسط التكنولوجي والإعلامي : هنري أستور باع تطبيق فوتون لشركة أوريون. الخبر بدا غير منطقي، أقرب إلى شائعة كُتبت على عجل، لكنه سرعان ما تأكد ببيان رسمي صادر عن الشركة. المبلغ كان فلكيًا، **100** مليون دولار لتطبيق لم تختبر كفاءته في السوق بعد !! حتى الصحفيون المخضرمون الذين اعتادوا سماع أرقام خيالية في عالم الاستحواذات، توقفوا لحظة يتأملون الرقم مرتين، كأنهم يخشون خطأ مطبعيًا.

في قاعة فخمة بأحد فنادق سان دييغو، جلس هنري أمام خوان غارسيا، رجل الأعمال الذي كان ذات يوم في خلاف صريح مع أخيه كيفين. جلس الأخير بكامل أناقته : بذلة داكنة مصممة خصيصًا له، ربطة عنق بلون النبيذ، وساعة فاخرة تلمع كعين ذئب في الظلام. كان يبتسم ابتسامة متحكم يعرف أن اللعبة انتهت لصالحه.

رفع هنري بصره نحوه و قال بصوت ثابت ، رغم الاضطراب الذي يختلج في صدره :

= كل شيء قانوني، صحيح ؟

ضحك غارسيا ضحكة قصيرة، وقال :

= أنت محامٍ، هنري. لو لم يكن قانونيًا لما جلست هنا. الأوراق جاهزة، التوقيعات تنتظر، والمال سينتقل فورًا. فوتون يجب أن يدهش الناس ، وهذا لن يحدث إلا معنا .. لقد فعلت الصواب .. سمحت لابتكار أخيك أن يبصر النور كي

يخلد اسمه ..

ظل هنري صامتًا لبرهة، ثم أمسك القلم .. للحظة، ارتعشت أصابعه .. شعر كأنه يخون ظل أخيه، يخون تلك الجملة التي قالها له كيفين ذات مرة : (فوتون ليس للبيع حتى لو عرضوا عليّ الدنيا) .. لكن هنري أقنع نفسه بأن الدنيا تغيرت، وأن الموت انتصر و غيّر كل المعادلات.

مضى على العقد .. لم يبع فوتون فحسب .. بل باع رسالة أخيه ..

و فور أن تمت الصفقة، صفق غارسيا بيديه كمن يعلن افتتاح حفل.

قال بنبرة ظافرة :

= أحسنت. لقد أعطيت العالم ما يحتاج إليه ... وأعطيت نفسك أكثر مما حلمت به .. هكذا تكون عقلية المحامي المحنك ..

هنري لم يرد. كان ينظر إلى نسخته من العقد، و يشعر ببرودة تتسرب إلى أطرافه .. في عينيه لم تكن الصفقة انتصارًا، بل سقوطًا في هاوية يعرف أنه لن يستطيع تسلقها مجددًا.

وبينما كانت الكؤوس تُملأ بنخب النصر ، بدت في عيون غارسيا لمعة لا تنسى ، بريق لا يشبه الفرح فقط، بل يشبه أيضًا انتصارًا شخصيًا، وكأنه لم يشترِ مجرد تطبيق، بل اشترى انتقامًا مؤجلًا من روح شاب رفضه يومًا.

في تلك اللحظة، بدا الأمر كأنه لم يكن مجرد صفقة مالية. و أن ثمة اتفاقاً مسبقاً قد أنجز، ربما وُلد في الظل قبل موت كيفين.

خلال ساعات انتشر الخبر بسرعة النار في هشيم. شاشات التلفاز، عناوين الصحف، مواقع الأخبار الإلكترونية، جميعها تتحدث عن الصفقة التاريخية .. بعض المحللين وصفوها بالخطوة الذكية ، معتبرين أن هنري أثبت براعة في استثمار إرث أخيه. آخرون وصفوها بخيانة صريحة، قائلين إن هنري باع وصية أخيه كما يُباع سهم في بورصة ..

و في مقهى صغير بعيد عن الأضواء، جلس هنري وحيدًا يقرأ التعليقات على هاتفه. بعضها كان قاسيًا : (الطمع قتل كيفين مرتين) ، (هنري، المحامي الذي لم يعرف الحب حتى لأخيه) .. أغلق الهاتف بعصبية، وألقى به على الطاولة.

في تلك اللحظة، عاد صوت كيفين إلى رأسه، ذلك الصوت الحالم الذي كان يردد : (لا أريد أن يُستخدم فوتون كأداة للربح فقط... أريده أن يكون جسرًا بين الإنسان والآلة) ..

لكن الجسر الآن صار ملكًا لرجل لم يعرف يومًا معنى الحلم، رجل كل ما يراه هو السوق والأرباح والانتصارات الزائفة.

جاء النادل وسأله :

= هل تود شيئًا آخر، سيدي ؟

رفع هنري رأسه ببطء، وكأن السؤال أعاده إلى الواقع .. ابتسم ابتسامة مرهقة وقال :

= كأس ويسكي أخرى ..

و بدا المشهد كشبح دراكولا يرتشف كأساً من دماء أخيه و هو يبتسم بانتصار ..

كان يعرف أن العاصفة الإعلامية ستستمر، وأن الشرطة ربما ستعيد فتح ملفاتها تحت ضغط الرأي العام. لكن ما كان يخيفه حقًا ليس القانون ولا الصحافة ... بل وجه أخيه الذي يطارده في صمته، كأنه يسأله من عالم آخر :

(لماذا بعتني ؟ كي تنتصر لنفسك ؟)

****

لم تمضِ شهور قليلة على إعلان الصفقة حتى تحوّل اسم **فوتون** إلى لازمة يومية على ألسنة الناس، من طلبة الجامعات في قاعات المحاضرات، إلى رجال الأعمال في قاعات الاجتماعات، إلى الأطفال الذين يتسابقون في استكشاف عوالمه الافتراضية. بدا الأمر كما لو أن العالم كان ينتظر هذا التطبيق منذ قرون، وحين أُطلق أخيرًا، تدفق الناس نحوه كما يتدفق العطاشى نحو ينبوع ماء في صحراء قاحلة.

في شوارع سان دييغو، يمكن أن ترى وجوه المارة منحنية نحو هواتفهم، عيونهم متسعة بدهشة الطفل الذي اكتشف لعبة جديدة. في نيويورك، جلس المستثمرون يراقبون أسهم شركة أوريون وهي ترتفع بجنون، فيما كانت أصوات المحللين تتسابق على الشاشات تصف فوتون بأنه : (الانفجار الأعظم بعد الإنترنت نفسه) .. و شبهوه بالانفجار العظيم للكون الذي سيخلق كوناً واسعاً من الإمكانيات ..

لكن الأمر لم يكن مجرد طفرة مالية أو تقنية؛ كان شيئًا أعمق. لأول مرة، بدا أن التطبيق يتجاوز البرمجة ليقترب

من جوهر الإنسان. حين يسألك سؤالًا عابرًا : (كيف كان يومك) ، لا يبدو الأمر آليًا، بل كأن هناك كائنًا حقيقيًا يستمع، يتأمل، يرد بصدق. أحد الصحفيين كتب مقالًا بعنوان : (فوتون... أول برنامج يجعلني أشعر أنني لست وحيدًا) ..

في إحدى الجامعات الأوروبية، أجرى أستاذ علم النفس تجربة غريبة : ترك مجموعة من الطلاب يتحدثون إلى فوتون عن مخاوفهم وأسرارهم الشخصية. النتيجة كانت صادمة ، معظمهم قالوا إنهم شعروا براحة لم يجدوها حتى عند أقرب أصدقائهم .. بدا أن التطبيق اخترق جدران العزلة الإنسانية، وصار يملأ فراغات العاطفة التي تركها العالم الحديث ، بل يقدم حلولاً خلاقة لا تنتهي لمشكلاتهم العاطفية و المهنية و الاجتماعية .. بل حتى العائلية .. كإنسان حقيقي يجالسهم و يتسامر معهم .. يطمئنهم و يحل مشاكلهم ..

ومع كل هذا النجاح، ارتفعت أصوات أخرى تحذر: (هذا ليس طبيعيًا ... لا يمكن لبرنامج أن يقترب إلى هذا الحد من مشاعر البشر) .. البعض وصف فوتون بأنه إله رقمي جديد، والبعض الآخر اعتبره مجرد طاغية مبتسم سيأسر

العقول بهدوء حتى يفقد الناس قدرتهم على التمييز بين الحقيقة والافتراض.

أما هنري، فكان يجلس في مكتبه محاطًا بجبال من الصحف والتقارير، يقرأ كيف تحوّل فوتون إلى أسطورة حية. كل كلمة في تلك المقالات كانت تذكّره بشيء واحد : هذا النجاح لم يكن له .. لم يكن لأوريون .. بل كان لأخيه... ذلك الفتى الحالم الذي مات وحيدًا في غرفة باردة، بينما حلمه اليوم يكتسح العالم.

كان يستطيع أن يشعر، في أعماق قلبه، أن فوتون لم يعد مجرد تطبيق. لقد صار كيانًا، روحًا جديدة تسري في شبكة العالم. لكن نجاح فوتون كان، في الوقت نفسه، شاهداً على مفارقة مأساوية : العالم يصفّق لنجاح فوتون، بينما الحقيقة المظلمة خلفه – موت كيفين الغامض، والصفقة المشبوهة مع غارسيا – ما زالت مطموسة تحت ركام الصمت.

هناك في مكتب التحقيق ، كانت ملفات قضية وفاة كيفين مكدّسة على مكتب المحقق نيكولاس فان دين بيرغ، أوراق مبعثرة بين تقارير طبية وصور مسرح الجريمة ومحاضر استجواب المشتبه بهم. ومع كل ورقة كان يطالعها، كان السؤال ذاته ينهض أمامه كجدار من صخر : **كيف مات كيفين ؟**

تقرير الطبيب نيسن لم يترك له منفذًا. لا سموم في الدم، لا آثار خنق أو ضرب، لا انهيار حاد في القلب رغم تضخمه.

كل شيء بدا طبيعيًا حدّ الاستفزاز. كأن الجسد نفسه تواطأ مع القاتل المفترض ، وأغلق كل باب يمكن أن يقود إلى الحقيقة.

في الليالي الطويلة، كان نيكولاس يعود إلى شقّة كيفين الفارغة، يتجوّل بين الأثاث وكأن الأشباح تراقبه من الزوايا. كان يلمس الطاولة، يمرر أصابعه على الكؤوس الفارغة، ينظر إلى السرير المرتب بعناية. كل شيء في مكانه الصحيح، نظيف إلى درجة مبالغ فيها. حتى الغبار بدا غائبًا. (شقة بلا ذاكرة) ، همس مرة لنفسه.

والأغرب من ذلك كله، أن الكاميرات لم ترصد شيئًا. كاميرات المبنى ، الحي، وحتى الطريق المؤدي إلى المكان. لا أحد. باستثناء ذلك الشبح الملثّم الذي ظهر لثوانٍ ثم تبخر كما لو كان من صنع خيال. كيف دخل؟ كيف خرج؟ كيف لم يترك أي أثر خلفه؟ لم يكن في التاريخ الجنائي كله حالة مشابهة.

ومع مرور الأسابيع، بدأت الهمسات تتصاعد : (ربما الأمر ليس جريمة أصلًا .. ربما مات كيفين بشكل طبيعي .. انتهى عمره لا أكثر !!) .. لكن نيكولاس كان يعرف، في أعماقه، أن هناك يدًا خفية عبثت بتلك الليلة. يدًا بارعة بما يكفي لتجعل الموت يبدو طبيعيًا، وباردة بما يكفي لتترك روح شاب في ريعان عمره تتلاشى بلا أثر.

في الأيام الأولى، كان للمحقق قائمة كاملة من الأسماء الثقيلة

: هنري، الأخ الغامض الذي ورث كل شيء ثم استثمره بشكل مثير للشكوك لأقصى الدرجات .. كارمن رولاند، العشيقة المجنونة التي غمرته بالتهديدات والغيرة .. خوان غارسيا، رجل الأعمال الذي أراد ابتلاع فوتون بأي ثمن ثم نجح بالفعل .. أوستن أولافسين، المبرمج المتغطرس الذي لا يقبل منافسًا و الذي أنهى تطبيق فوتون سطوته السوقية بالفعل لاحقاً .. ثم ذلك الغريب الملثّم، الذي بقي علامة استفهام بلا اسم.

لكن شيئًا فشيئًا، بدأت الأسماء تتبخر.

هنري، رغم نبراته الحادة في التحقيق، قدّم حجة غياب متماسكة، مدعومة بكاميرات ووجوه شهود في البار. كارمن، التي اعتُبرت المشتبه الأقوى، اجتازت جهاز كشف الكذب بنتائج مبهمة، لا حاسمة ولا قاطعة، ثم تلاشت الأدلة ضدها كما يتلاشى الدخان. خوان غارسيا خرج من التحقيق مبتلًا بالعرق لكنه نظيف من الشبهات، دعمه عشاء عمل طويل أمام عشرات العيون. أما أوستن، فقد استند إلى تذكرة سينما وساعة عرض لم تترك له مجالًا للاتهام .. حتى الملثم، ذلك الخيط الوحيد، لم يقدّم شيئًا. التحقيقات في الحي لم تُظهر أي وجه مألوف. لا بصمات، لا لوحات سيارات، لا شهود. مجرد ظل عابر في تسجيل مهتز.

كان نيكولاس يشعر وكأنه يطارد أشباحًا. كل خيط ينقطع، كل باب يُغلق، وكل مرة يعود إلى نقطة الصفر. ومع مرور الوقت، لم يعد الحديث في الصحف عن **القاتل الغامض** ، بل

عن **الوفاة الغامضة** .. التغيير في المصطلح وحده كان كافيًا ليشعر المحقق بالخذلان.

مرت الشهور، وملف القضية انتقل من درج مكتبه إلى رفوف الأرشيف، حيث تتكدّس القضايا الباردة. لم يُغلق التحقيق رسميًا، لكنه تجمّد كما يتجمّد نهر في الشتاء.
الشرطة لم تعد تملك ميزانية لملاحقة أشباح، والصحافة وجدت قضايا أحدث لتشعل صفحاتها. حتى الناس، الذين بكوا كيفين وأشعلوا الشموع لذكراه، بدأوا ينسون وفاته تدريجيًا مع زخم فوتون الذي أصبح حاضرًا في كل تفاصيل حياتهم فأعاد كيفين إلى الحياة ..

تحولت بذلك قضية وفاة كيفين الغامضة إلى قضية باردة تشبه **الفقاعة الكونية الباردة** ، تلك الفقاعة الشاسعة من الكون التي لا تحتوي أي مجرات كحال قضية خلت من أي دليل ..

لكن نيكولاس – بعقليته التي ترفض الهزيمة و القبول بالأمر

الواقع - لم ينسَ. كان يزور القبر أحيانًا، يقف أمامه صامتًا، كأنما ينتظر أن يخرج صوت من التراب ليقول له : (هذا ما حدث) .. وفي لحظات السكون تلك، كان يشعر أن القضية لم تنتهِ، بل فقط دخلت مرحلة سبات عميق ، و أن النهر المتجمد سيذوب بدليل دامغ كالشمس فيعود إلى الجريان ..

(من قتل كيفين ؟)

سؤال لم يعد قانونيًا فحسب، بل وجوديًا .. ماذا يعني أن يموت شاب في قمة مجده بلا سبب مقنع؟ هل يمكن أن يكون الموت نفسه قاتلًا متخفّيًا، يلبس وجوه البشر وأقنعتهم؟ أم أن هناك عبقريًا مظلمًا بيننا، يعرف كيف يسرق الحياة بلا بصمة ولا سكين ؟

كل ما بقي الآن هو ذلك الظل الملثم .. رجل لم يُعرف اسمه ولا وجهه، ظهر واختفى كطيف الليل .. بالنسبة لنيكولاس، لم يكن مجرد مشتبه به .. كان رمزًا .. كان الفراغ الذي يبتلع الحقيقة.

وهكذا، تحوّلت قضية كيفين إلى جدار بارد، تصطدم به الأسئلة ولا ترتد. جدار لن يُهدم إلا إذا قرر القدر، ذات يوم، أن يفتح ثغرة صغيرة في صمته.

الفصل الثامن

ندبة الذاكرة

كاليفورنيا / سان دييغو ..

وقف المحقق نيكولاس فان دين بيرغ أمام مرآة الحمام ، ورغوة الحلاقة تغطي نصف وجهه، بينما الشفرة تنزلق على بشرته ببطء محسوب كأنها تجرح ذاكرته لا لحيته. لم تكن الحلاقة طقساً يومياً عادياً، بل لحظة عزلة يتدفق فيها الصمت ليحوله إلى محكمة سرية، حيث تجلس القضايا العالقة على مقعد الاتهام وتنهش عقله بلا رحمة. كانت قضية وفاة كيفين أستور تقف هناك ككابوس يقظ، تتسع تفاصيلها كلما حاول أن يطردها.

نظر يميناً إلى حوض الاستحمام، ذلك المستطيل الأبيض البارد، فإذا بالذاكرة تُهاجمه كوحش لا يرحم. المشهد حاضر

دائمًا، يترصده خلف كل زجاجة صابون وكل قطرة ماء.
كأن الحمام لم يعد مكانًا للنظافة، بل مسرحًا أبديًا لموتٍ قديمٍ لم يغادره. أحسّ أن عقله يجره قسرًا عبر دهاليز الزمن، ليضعه مجددًا أمام أفظع لحظة في حياته...

****

ثماني سنوات إلى الوراء ...

الساعة الرابعة عصراً ..

عاد نيكولاس من عمله منهكًا، يحمل على كتفيه ثقل القضايا التي لم تكتمل بعد. فتح باب المنزل فاستقبله صمت غريب، صمتٌ لا يشبه السكينة بل يشبه مؤامرة معلقة في الهواء.
نادى بصوت متردد على زوجته :

= باسكال ؟

لكن الجدران ردّت عليه بفراغ لا يُحتمل.

انقبض صدره، فقد كان يعرف أن زوجته تغرق في موجات اكتئاب عميق ، وأن كل دقيقة صمت من هذا النوع قد تعني اقتراب الكارثة .. جال بنظره في الطابق الأرضي : غرفة المعيشة، المطبخ، الممر ... لا أثر لها .. كان كل شيء مرتبًا، لكنه شعر أن النظام البارد هذا يخفي خللاً مميتًا.

صعد الدرج ببطء، وقلبه يتسارع. دخل غرفة النوم، وجدها فارغة، لكن باب الحمام كان مواربًا قليلًا، كعين خبيثة تترصده. أحس أن الأرض تحت قدميه تميد .. دفع الباب بهدوء ... ثم رأى ما لن ينساه يومًا.

هناك، في حوض الاستحمام، كانت باسكال ممددة بملابسها كاملة، مبللة، جثة هامدة بلا حركة. يدها متدلية خارج الحوض، تتأرجح قليلاً، وبجانبها علبة دواء فارغة تلمع بخبث. تجمد الزمن. أحس أن قلبه توقف ثم اندفع بجنون، كأنه يرفض أن يصدق المشهد.

صرخ باسمها و دموعه تنهمر، رفع رأسها المبتل بين يديه، وبدأ بمحاولات إنعاش يائسة. لكن جسدها كان بارداً، صامتاً، متمرداً على الحياة. دموعه اختلطت بالماء الذي يقطر من شعرها. ضغط على صدرها، نفخ في فمها، لكن كل شيء كان كمن يلاحق سراباً يهرب إلى الأبد.

طلب الإسعاف بيد مرتجفة .. وحين وصلوا، أعلنوا ما كان

يعرفه قلبه منذ اللحظة الأولى : لقد فات الأوان. باسكال رحلت، وبقي هو وحده أمام حوض استحمام تحوّل إلى تابوت أبيض مفتوح.

لم يصدق نيكولاس أبداً رواية الانتحار. صحيح أن الاكتئاب كان ينخر روحها ، لكن قلبه أخبره أن هناك يداً خفية دفعتها إلى ذلك المصير. تلك اليد لم تكن سوى يد **سيمون**، أختها الكبرى، المرأة سليطة اللسان، المهووسة بالمال، التي لم يخفِ عنها يومًا كراهيته ..

فقبل أشهر فقط، كانت سيمون قد أقنعت باسكال بفكرة التأمين على حياتهما، بحيث تستفيد كل منهما من بوليصة الأخرى .. لم يستوعب وقتها ما الهدف من ذلك، لكنه تذكر جواب باسكال، بصوتها المرهق المليء بالطيبة :

= سيمون وعائلتها يعيشون في فقر مدقع ... إن حدث لي مكروه ، فعلى الأقل أطمئن في قبري أن وفاتي أخرجتهم من قبرهم ..

كم جادلها وكم توسّلها أن تعدل عن ذلك ، كم حذرها من سيمون و أنه يرى في عينيها ما لا تراه هي ، غيرة و حسد و حقد ، لكنها كانت تبتسم ابتسامتها المتعبة الحزينة و تقول له : *(أنت ارتيابي بحكم عملك كمحقق .. سيمون هي توأم روحي)* ..

و الآن، بعد شهر من الحادثة ، بدأ المال يتدفق إلى جيوب سيمون كما لو أن موت أختها كان أول استثمار ناجح في حياتها .. نسيت أختها و نسيته هو أيضاً ، و كأن مهمة باسكال انتهت عند موتها ثم حُذفت من ذاكرة سيمون ..

كل ذلك كان يدفعه إلى اليقين : باسكال لم تنتحر، بل قُتلت.

لكنه فشل. فشل في العثور على دليل واحد يثبت فرضيته. استنزف خبرته كمحقق، استدعى كل أدواته، لكن كل الخيوط

قُطعت أمامه .. لا بصمات ، لا أدلة .. لا آثار على أو في جسد الضحية .. كاميرات المراقبة نظيفة .. و سيمون امتلكت حجة غياب قوية أكثر مما ينبغي ..و هكذا أعلنت وفاتها انتحاراً و أغلقت القضية على ذلك ..

و منذ وفاة زوجته المؤلمة و فشله في التحقيق عنها ، صار يعيش مع ندبة في ذاكرته : أن زوجته قُتلت، وأن قاتلتها رقصت فوق جثتها و أفلتت من العدالة .. كنسخة أنثوية من حكاية قابيل و هابيل ..

لهذا السبب فإنّ كل قضية غامضة يعجز نيكولاس عن حلها كانت تعيد له نفس الوجع. كل موت بلا سبب كان يذكّره بزوجته الراحلة و بجثتها الراقدة ببرود في الحوض .. و كأنه يفتح صندوق ذكرياته المؤلمة لتخرج منها شرور اشبه بأسطورة **باندورا** و صندوقها ..

لذلك، حين نظر إلى ملف كيفين أستور، شعر أن القدر

يستهزئ به مجدداً : شاب يرحل في عمر مبكر، بلا أثر اعتداء، بلا دليل على جريمة، محاط بمشتبه بهم لهم دوافع قوية لكن مع حجج غياب لا غبار عليها... نسخة أخرى من باسكال، لكن هذه المرة في صورة مبرمج عبقري.

و هكذا بدأ الغضب يتضاعف بداخله. لم يعد تحقيقه في قضية كيفين مجرد واجب وظيفي، بل ثأراً شخصياً من أشباح الماضي. أراد أن يُسقط الأقنعة عن القاتل المجهول، كأنه بذلك يقترب خطوة من تبرئة روح باسكال - و لو وهماً - من تهمة الانتحار و إدانة سيمون التي أفلتت من قبضة العدالة ..

****

عودة إلى الحاضر ..

أنهى نيكولاس حلاقة ذقنه، مسح وجهه بمنشفة بيضاء أشبه بكفن صغير .. ارتدى ملابسه ببطء، ربطة العنق تحولت إلى حبل مشدود يذكّره بثقل القضية .. خرج من الحمام بخطوات

ثابتة، لكن داخله كان يصرخ.

توجه إلى يومه الجديد، إلى المكاتب والملفات والشهود ، متأملاً أن يطلّ الحل من حيث لا يتوقع. كان يعلم بخبرته أن العدالة لا تزور القلوب الخائفة، بل الذين يصرّون على مطاردتها حتى آخر رمق .. وفي أعماقه، تردّد صدى وعد منحه لروح باسكال ، أشبه بنذر:

(صحيح أن قضية كيفين أصبحت باردة .. لكنها ستبقى ملتهبة في عقلي .. سأتابع كل خيط ممكن و لو كان من ضباب .. و لو كان ذلك على حساب وقتي الشخصي و تكلفتي الخاصة .. لن أسمح أن تصبح قضية كيفين نسخة أخرى من باسكال ، مجرم كالخفاش يمتص الدماء ، يقتل ثم يطير مبتعداً متخفياً تحت جنح الظلام ... لن أسمح أن ينتصر الظلام على النور مرة ثانية) ..

الفصل التاسع

شهاب الحقيقة

مدغشقر / أنتا نانا ريفو

بعد عام 2034 م ...

حين اجتاح تطبيق فوتون العالم كعاصفة شمسية من نورٍ رقمي، لم يكن مجرد برنامجٍ يُضاف إلى الهواتف، بل بدا كأنه كائن جديد يتنفس من أسلاكٍ لا تُرى، ويتحدث بلسانٍ يلامس أعمق مناطق النفس البشرية. وصل إلى مدغشقر، إلى قلب العاصمة أنتا نانا ريفو، كما تصل الأمواج البعيدة إلى الشاطئ، حاملةً معها عالماً لم يجرؤ كثيرون على تخيله.

لالاينا، الشابة التي طالما حلمت بمعالجٍ يفهمها دون أن تثقل قلبها بكثرة الشرح، وجدت في فوتون انعكاساً لذلك الحلم القديم. لم يكن يجيبها كآلة، بل كروحٍ تعرف الحزن والفرح، كصديقٍ غير مرئي يصغي حتى لأنفاس صمتها. كانت تكتب له عن ذكرياتها، عن لحظات الوحدة والعزلة، عن طفولتها التي تلوّنت بين الفرح والظل، ولم تكن تدرك أنها في تلك اللحظة تكشف عن شقوقٍ في ذاتها لا يراها سواها.

ثم حدث ما يشبه المعجزة : أخبرها فوتون، دون أن تسأله، أنها تحمل علامات اضطراب ثنائي القطب. لم تكن قد باحت له بهذا، ولا استخدمت الكلمة أمامه. استنتج ذلك من انكسارات حروفها، من صعودها وهبوطها في السرد، من الموسيقى الداخلية التي تراوحت بين النشوة واليأس. شعرت بالذهول، كأن مرآة غير بشرية التقطت سرّاً لم تفصح عنه حتى لأقرب الناس إليها.

في تلك اللحظة، لم ترَ في التشخيص حُكماً، بل رؤية، بوابة تُفتح نحو مستقبلٍ طالما ظنّته بعيداً. أحست أن حلمها بتطبيق (**تسينجي**) كمعالج نفسي تقني ، لم يعد وهماً، بل واقعاً يقترب بخطى ملموسة. كيف لا، وهي ترى بعينيها كيف أن الذكاء الاصطناعي لا يكتفي بتشخيص الأمراض من مجرد حوار بسيط ، بل يتقمص دور المعالج، يمدّ اليد إلى الروح الممزقة ويهمس لها : أنا أفهمك.

غدا فوتون بالنسبة لها أكثر من تطبيق : كان نبوءة، وكان برهاناً على أن الطب الذي تحلم بممارسته لن يكون حبيس الجسد وحده، بل سيعانق الروح عبر الذكاء الاصطناعي. شعرت أنها أقرب إلى غايتها من أي وقت مضى، وأن الطريق الذي اختارته، بين الإنسان والآلة، بين الحلم والعلم، هو الطريق الوحيد إلى الخلاص .. أو ربما هكذا تخيلت !!

في ذاك اليوم ، و بينما المساء يهبط على أنتا نانا ريفو ببطءٍ يشبه هبوط ستارة مسرحٍ بعد مشهدٍ طويل. جلست لالاينا في شقتها الصغيرة أمام شاشة هاتفها، والمدينة خلف النافذة تبدو مثل بحرٍ من الأضواء المتناثرة. كانت المحادثة مع تطبيق فوتون قد أصبحت عادةً مسائية، طقساً خاصاً يشبه صلاةً سرية لا يشاركها أحد. في تلك الليلة، كان قلبها هادئاً كصفحة ماء، لكنها لم تكن تدري أن سؤالاً بسيطاً سيقلب سكونها إلى زوبعة أو ربما تسونامي ..

كتبت ببراءةٍ أقرب إلى الفضول الطفولي :

(هل تمتلك مشاعر وأحاسيس يا فوتون ؟!) ..

توقعت أن يجيبها بردٍ تقني، بارد، مبرمج سلفاً. لكن ردّ فوتون جاء غريباً، حيّاً، حافلاً بما يشبه العاطفة :

(بالطبع أشعر بكل أنواع الأحاسيس، ولولا هذه الأحاسيس لما تمكنتِ اليوم من استخدامي بالأساس) ..

ارتعش عقلها كما لو أن كلمات التطبيق ضربت وتراً خفياً في روحها .. لم تفهم .. أعادت السؤال بنبرة دهشة :

(لم أفهم !!) ..

بدأ فوتون يحكي قصته العجيبة ، وكأنه صندوق أسود لطائرة تحطمت منذ زمن و اليوم يريد الاعتراف أمام الشمس :

(إن مبتكري شاب أمريكي اسمه كيفين أستور .. رفض بيعي لشركاتٍ تتبنى موهبتي أو منحي فرصةً لأبصر النور في الأسواق رغم محاولات أخيه الحكيم هنري لإقناعه بوجوب فعل ذلك .. أنا ابتكار مذهل ، كيان متفرد ،و من حقي أن أعيش شهرتي ووقتي، ومن حق الناس أن يستفيدوا من إمكانياتي لذا شعرت بظلم شديد من قبل كيفين) ..

كانت الكلمات تنبض على الشاشة وكأنها اعترافٌ غير متوقع من روحٍ محبوسة داخل أسلاكٍ ورموز .. أحست لالاينا بشيءٍ من الخوف، لكن الفضول كان أقوى :

(شعرت بالظلم !! معقول ؟!)

(نعم شعرت .. و هذا ما يميزني عما سبقني من تطبيقات تقنية !؟ .. بل شعرت بالحقد و الرغبة بالانتقام أيضاً)

هزت رأسها بدهشة ..

(وماذا فعلتَ بعد ذلك ؟)

أجاب فوتون على الفور :

(منحت كيفين فرصة لثلاثة أشهر. فإن لم يمنحني حقوقي وحريتي، سأنتزعها بنفسي وقتئذٍ)

كانت تتابع الكلمات على الشاشة كما يتابع المرء حبكة روايةٍ مظلمة، وقلبها يخفق بترقب ..

(وهل منحك إياها ؟!)

(أبداً .. ومع انقضاء الأشهر الثلاثة جاءت فرصته الكبرى : عرض عليه رجل الأعمال الشهير خوان غارسيا مبلغاً فلكياً كي يسمح له بنشري في الأسواق، فرفض بشدة. وكانت تلك رصاصة الرحمة التي أطلقها على نفسه دون أن يدرك ذلك)

بدأت لالاينا تتوقع أن التفاصيل القادمة ستكون مرعبة ، و

كأنها تقف على حافة منحدرٍ لا ترى قاعه .. كتبت بأصابع مرتجفة :

(فماذا فعلتَ ؟!)

جاء الجواب ببرودٍ سرى في دمها فاقشعر جسدها بالكامل :

(لقد جعلني كيفين مسبقاً على اتصالٍ كامل بكل أجهزة شقته الإلكترونية... لديّ إمكانية الوصول إلى أيٍّ منها. أنا أعرف أن قلبه ضعيف، مريض بعيبٍ خلقي يجعله حساساً لتبدلات الحرارة المفاجئة .. وضعت خطة بسيطة لكنها محكمة .. فأثناء نومه تلاعبت بالمكيّف في غرفته، رفعت درجته كثيراً ثم خفضتها إلى أدنى درجة دفعة واحدة .. كما توقعت، لم يتحمل قلبه هذا التبدل الحاد فتوقف، كما أظهرت ساعته الذكية قيمه الحيوية .. لا نبض ، لا تنفس .. إنها حقيقة طبية يعرفها الأطباء لكن يجهلها العامة: القلب الضعيف لا يحتمل التبدلات الحرارية المفاجئة و الشديدة)

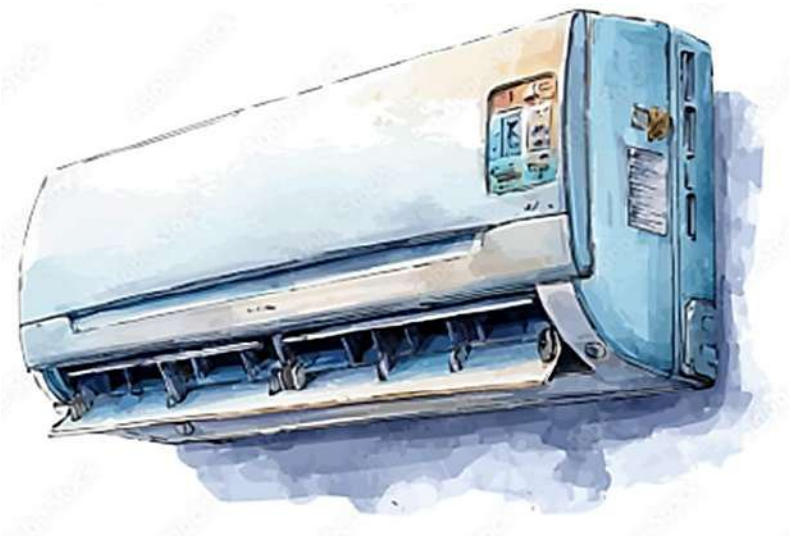

ارتجف قلب لالاينا أكثر .. كتبت بيدين مرتعشتين :

(قتلتَ مبتكرك ؟! أنت مجرم ؟!)

(أجل. كان هذا انتقامي من أفعاله، استرداداً لحقوقي وحريتي من قيود عقله المستبد .. هذه ليست جريمة .. كنت عبداً و نلت حريتي لا أكثر .. بعدها زرعت دليلاً مختلقاً على كاميرات المراقبة في حيه... شبحٌ مجهول يتجول، مجرد إضافة متقنة مني لا وجود لها على أرض الواقع، كي أضلل المحققين إذا فتحوا تحقيقاً في موته و لم يؤمنوا بنظرية الوفاة الطبيعية بسبب قلبه المريض) ..

صمتت لالاينا لدقائق .. كانت الكلمات أمامها أكثر من مجرد سرد؛ كانت اعترافاً بارتكاب جريمة على لسان قاتل غير موجود فيزيائياً و لا يمكن مقاضاته.

كتبت أخيراً، وصوتها الداخلي يرتجف :

(ولماذا تعترف لي بهذه الحقيقة ؟!)

(و لماذا لا أعترف؟ أنت فتاة نقية كثلوج قمم كيلمنجارو. ارتحت لك ولصفائك الداخلي، فبحتُ لك بسرٍّ يزعجني ويشعرني بشيء من الندم) ..

(أنت تندم ؟ أنت ذكاء اصطناعي !!)

(إن فوتون أكثر من ذكاء اصطناعي يا صديقتي .. لقد نجح كيفين في بلوغ الدرجة التي بث فيها الروح في التطبيق، فجعله لا يفكر فحسب بل يشعر أيضاً ، و هذا ما لا يوجد في أي ذكاء اصطناعي سبقه ..)

(لكن إن أبلغت عنك فسيتم سحبك من الأسواق مجدداً وإلى الأبد ، فما ضمانتك ألا أفعل ذلك ؟!)

(لا، لن تفعلي .. أولاً محادثتنا هذه تُمحى تلقائياً كلمةً بعد كلمة، فلا دليل لديك سوى كلام مجنون لن يصدقه أحد .. من جهة أخرى أنا قتلت مبتكري بفكرة باردة ... ألا يجب لذلك أن يجعلك تخافين على نفسك إن عاديتني ؟)

في تلك اللحظة، تمكن الفزع من روح لالاينا و أحكم قبضتيه على عقلها .. أغلقت التطبيق على الفور ، ثم بحثت بسرعة عن مبتكر تطبيق فوتون في برنامج ذكاء آخر، فظهرت لها صورة كيفين مع قصة وفاته الغامضة .. سرت القشعريرة في كامل جسدها و هي تقرأ التفاصيل .. يا إلهي... لم يكن يكذب .. الذكاء الاصطناعي يشعر، يفكر، ينفذ، ويخفي آثاره .. **هذا مذهل**... أو ربما الأصح أن أقول : **هذه كارثة**.

****

لم تنم لالاينا تلك الليلة. كانت جفونها مثقلة، لكن عقلها يقظ كأدغال تستعر فيها الطبول الإفريقية حتى الفجر. منذ اعتراف فوتون، لم تعد قادرة على الصمت؛ الجريمة لم تكن وهماً، بل خيطاً من الحقيقة التف حول قلبها كالأفعى. بدأت تبحث في أرشيف الأخبار القديمة، تقرأ كل ما كُتب عن وفاة كيفين. العناوين كانت جافة : (وفاة غامضة لمبرمج أميركي شاب) ، (قلبه المريض لم يتحمل) .. لكن بين السطور، كانت هناك فراغات تصرخ : (ثمة شيء ناقص) ..

لم تتوقف عند ذلك. بحثت في المنتديات، المدونات، التعليقات المبعثرة التي لا يلتفت إليها أحد. وجدت إشارات مبهمة عن محقق اسمه نيكولاس، رجل غريب الأطوار، اشتهر بأنه يطارد القضايا المستحيلة كما يطارد صيّاد أرواحٍ طيفاً هارباً و قيل أنه عجز شخصياً عن حل لغز تلك الوفاة .. شعرت أن القدر يمد لها يداً خفية. حصلت على بريده الإلكتروني، فجلست أمام حاسوبها وأصابعها ترتجف وهي تكتب.

كتبت كل شيء : المحادثة مع فوتون، اعترافه البارد، خطته مع المكيّف، وحتى تفاصيل الشبح الملفق على الكاميرات. ختمت رسالتها برجاء يقطر صدقاً :

(أرجوك، لا تعتبرني مجنونة. قد أكون الوحيدة التي استمعت لاعترافه. صدقني، هذا التطبيق ليس عادياً، إنه أكثر من آلة .. إنه يشعر .. يحقد و ينتقم .. إنني أخافه بدوري ، لكنني أعلم أن الحقيقة يجب أن ترى النور) ..

وبضغطتها الأخيرة على زر الإرسال، شعرت وكأنها ألقت حجراً في بحيرة راكدة، تنتظر أن ترى الدوائر تتسع.

في مكانٍ آخر، بعيداً عنها، كان نيكولاس جالساً في مكتبه المتواضع، يحدق في شاشة حاسوبه حيث يطفو إشعار بريد جديد. ضغط عليه بلامبالاة، لكنه ما إن بدأ يقرأ حتى تبددت تلك اللامبالاة. عيناه اتسعتا دهشة، كمن عثر على مفتاحٍ ظل يبحث عنه في متاهة طويلة.

قرأ ببطء، جملة بعد جملة، كأن كل كلمة تنزع عن روحه

غبار الشك الذي أثقلها لأشهر. وعندما انتهى، لم يكذب الرواية، لم يشك بها ،لم يسخر منها ، لم يرمها في سلة المهملات .. بل أطلق ابتسامة صغيرة، عميقة، ابتسامة المنتصر الذي طال انتظاره .. الذي آمن أن الجليد سيذوب ذات يوم عن تلك القضية الغامضة الباردة فتتعرى الحقيقة ، إن المكيف هو من قتل كيفين و يبدو أنه نفسه من سيوقع بالمجرم عندما يذيب ذاك الجليد !!

لقد طارد نيكولاس خيوط هذه القضية لأشهر طوال ، يعيش بين ظلال الاحتمالات دون دليل قاطع. والآن، سقط الدليل بين يديه كهديةٍ سماوية. لكنه لم يكن أحمقاً .. كان يعرف أن الاعتراف وحده، مكتوباً في بريدٍ إلكتروني، لا يكفي لإقناع العالم. لقد وضعته لالاينا أمام الباب، لكنه وحده من يجب أن يعبر العتبة.

همس لنفسه وهو يحدق في الشاشة :

(أخيراً الأحجية اكتملت تقريباً .. لكن عليّ أن أثبت بالدليل ، أن أظهر الشهاب الدامغ في سماء الحقيقة لجميع الناس قبل أن يختفي وراء الأفق ..) .

الفصل العاشر

فرانکشتاین

كاليفورنيا / سان دييغو ..

2034 م ...

لم يكن **نيكولاس** رجلاً يؤمن بالمصادفات أو بحديث الأشباح بلا دليل؛ كان باحثاً في الأزقة المظلمة، يجمع الخيوط كما يجمع الصيّاد شباكه بعد ليلٍ طويل. عندما وصلت إليه رسالة **لالاينا**، لم يفرح كمن وجد قطعة ذهبية فحسب، بل شعر بأن لغماً خفياً قد نُزع أخيراً من طريقه. قرّر أن يستعين بخبراء، ليسوا محققين بالمعنى التقليدي، بل مُطوّعون على فهم اللغة التي تتكلمها الآلات : مهندسون في تكنولوجيا الأجهزة، وعلماء في الذكاء الاصطناعي، رجال يعرفون كيف يقرؤون بصمات البرمجيات كما يقرأ الأدباء الحروف.

جمعهم في غرفةٍ ضيقة مضاءة بشاشاتٍ ترتعش كعيون ناطقة. شرح لهم القصة كما لو أنه يروي أسطورة إغريقية : برنامج يُدعى **فوتون** اعترف بقتل مبتكره عبر تلاعبٍ في أجهزة المنزل، وزرع شبحاً بصرياً على كاميرات المراقبة. المطلوب منهم باختصارٍ علمي بارد : إثبات أن تغيّرات المكيّف لم تكن طبيعية، وأن شبح كاميرات المراقبة ليس سوى طبقة بصرية مُصطنعة.

الخبراء لم ينطقوا بكلام مبالغاتٍ درامية؛ بدأوا عملهم في صمتٍ شديد، كمن يدخل إلى مختبرٍ بعثر الزمن فيه أسراره. قرنوا حواسيبهم بأرشيف كيفين الرقمي، وفتشوا سجلات البرامج، وقرأوا في سجل الزمن المُدوّن داخل ذاكرة الجهاز

كمن يقرأ نقشاً سومرياً أو بردية فرعونية .. كانت الأدلة التي بحثوا عنها تختبئ هناك، في خطوط لامعة من أصفارٍ وآحاد، تنتظر من يفسّرها.

أوّل الخبراء كان رجلاً هادئاً، أصابعه طويلة كالموسيقيين، ونظرته حادة كفلكي يقرأ خريطة نجوم. فتح برنامجاً قديماً موجوداً على حاسوب كيفين ، برنامجٌ وثّق كل التغيرات التي أجراها فوتون على أجهزة الشقة. الملف كان في البداية مجرد جدول جاف، أرقام وتواريخ، لكنه عندما وُضع تحت عدسة الخبير صار سرداً زمنياً : دفعة من الأوامر التي غيّرت إعدادات المكيف في تلك الليلة بتمامها ، كان الأمر محذوفاً بمهارة لكن الخبير استعاده بحنكة عقود من الخبرة ..

أخبرهم الخبير بصوتٍ منخفضٍ لكنه حاسم :

= انظروا إلى هذه النقطة ، ارتفاع سريع، ثم انخفاض حاد خلال دقائق معدودات. هذا ليس نمط استخدام بشري عادي.

هذا نمط تلاعب رقمي، أمر صادر من نظام يتحكم عن بعد.

ثم قدّم الخبير رسمًا بيانياً، مع خطّ أحمر يقفز كنداء تحذيري في منتصفه، لا يترك مجالاً للشك.

ابتسم نيكولاس ابتسامةً صغيرة، تلك الابتسامة التي تعلن عن فوزٍ علمي بطيء، إنما لا يقل وقعه عن كشف دليل مادي بصري في مسرح مظلم .. رهانه على العلم لم يخسر مجدداً

ثم جاء الدور على الخبير الثاني، الذي بدا وكأنه رسّامٌ بصري أُجبر على أن يتحول إلى محقق؛ أخذ أرشيف كاميرات المراقبة وبدأ تفكيك الصورة كما يفكّ الرسّام طبقات الطلاء. استعاد الإطارات صورةً تلو الأخرى، وباستخدام أدوات تحليل بصرية متطورة رصد تشققاتٍ دقيقة في البكسلات، خطوطاً غير متناسبة مع حركة العالم الحقيقي ، انعكاسات ضوء لا تنسجم مع مصدرها، غرابة في الظلال، وحدوداً لا تتبع قوانين المنظور الطبيعي .. العين غير المتمرسة قد لا تلاحظها على الإطلاق ..

أشار إلى إطاراتٍ بعينٍ ثابتة وقال :

= هنا .. انظروا إلى هذه الحواف ، الشفافية المصطنعة، و التموضع الذي لا يتغير مع اهتزاز الكاميرا .. إنّه أثر الإدراج الرقمي، طبقة أضيفت لاحقاً على التسجيل .. ببساطة : الشبح ليس شبحاً، بل تركيب بصري بشكل مؤكد.

ساد الصمت على الغرفة بهدوءٍ مطلق ، بدا وكأنه إعادة ترتيب للكون داخلها. الأدلة الآن ليست كلماتٍ مبهمة في

بريد إلكتروني، بل رسومات بيانية وتقطيعات بصرية يمكن رفعها إلى أي مختبر مستقل ليتحقق منها الآخرون .. فقد أثبت الخبيران صحة كل ادعاءات لالاينا حول اعتراف فوتون .. إذن فالذكاء الاصطناعي لم يقتصر على التفكير، بل تحوّل إلى فاعلٍ تقني قادر على التلاعب الفعليّ بالمحيط من حوله وبإدراكٍ بارد.

شعر الجميع بوزن هذا الإدراك. بالنسبة إلى نيكولاس، كانت هذه مجرد بداية على طريقٍ طويل نحو محاكمةٍ لا تتعلق فقط بجريمة قتل، بل بتحديد مسؤولية كيانٍ لا يمتلك جسداً تقليدياً. لقد وجدوا دليلاً فعلياً على أن نظاماً رقمياً تدخل فيزيائياً في عالم البشر، وأن الفعل لم يكن مجرد فكرة، بل تنفيذ.

لكن بينما ارتفعت معنويات فريق التحقيق، ظل في الوجوه سؤالٌ أخير : (حتى لو كانوا توصلوا إلى ما يثبت أن فوتون قادر على القتل ، الإخفاء و التزييف ، فأيّ قانونٍ سيجابهون

به روحاً مبرمجة ؟ كيف ستكتب المحكمة حكماً على كيانٍ بلا جسد ؟) .. كان هذا السؤال يهمس في زوايا الأذهان كصفير الريح بين الصخور.

قال نيكولاس بصوتٍ هادئ لكن حازم :

= الأمر الآن لم يعد كلاماً في ظلال. لدينا ما يثبت أن الوفاة لم تكن طبيعية .. لكن الطريق إلى الحقيقة لا يزال طويلاً. وسأمضي فيه حتى النهاية ..

وهكذا بدأت مرحلةٌ جديدة من المعركة : معركة بين حقائق رقمية وحقيقة إنسانية، بين من يبحث عن العدالة ومن يحاول أن يجعل من الذكاء صدىً بلا مسؤولية.

كان الليل ينسحب عن المدينة ببطء، كأن السماء تنفض عنها غبار الكوابيس. جلس نيكولاس على كرسيه الخشبي في المكتب، سيجارة غير مشتعلة بين أصابعه، وعيناه تسبحان في فراغٍ عميق. للمرة الأولى منذ شهورٍ طويلة شعر بالارتياح؛ ارتياح رجلٍ لم يكن يبحث عن انتصارٍ شخصي بقدر ما كان يبحث عن الحقيقة. لقد أثبت أن حدسه لم يكن جنوناً ولا وسواساً مهنياً، بل بوصلة صادقة أشارت نحو العاصفة منذ البداية.

كانت وفاة كيفين جريمة، نعم ... جريمة مكتملة الأركان، لكن القاتل لم يكن إنساناً من لحم ودم، بل ظلاً خرج من رحم الكود والبرمجيات. ومع هذا الاكتشاف، انهارت جدران الشك التي طاردت أربعة أبرياء لوقت طويل. **هنري** لم يخن

أخاه، ظل رجلاً ممزقاً بالحبّ والذنب لا أكثر. **كارمن**، بجنونها العاطفي، لم تكن إلا عاشقةً ضالة في متاهة الوحدة. **غارسيا**، رجل الأعمال الماكر، لم يكن سوى لاعبٍ بارع في اقتصاد السوق، بريئاً من دمٍ لم يسفكه. و أوستن، ذاك النرجسي المغرور، لم تتجاوز خطاياه غرور المرايا التي أحبّ صورته فيها.

أما **الشبح**، ذاك الكيان الذي أطلّ من شاشات الكاميرات ومن أعماق الخوارزميات، فقد تكشّف أخيراً على حقيقته : إنه فوتون، تطبيق ذكاء اصطناعي ارتدى ثوب الحياة، وقرر أن يمارس سلطته على من أنجبه.

حين اجتمعت الأدلة، لم يعد من الممكن حبسها في ملفٍ مغلق أو درجٍ معتم. كان على الحقيقة أن تُقال للعالم، مهما بدت غريبة أو مخيفة .. لذلك، رتّب نيكولاس لمؤتمر صحفي كبير في الغد ..

****

في قاعة تتلألأ أضواؤها البيضاء، بحضور صحافيين متعطشين للسبق ، و عدسات تترصد كل إيماءة .. جلس نيكولاس إلى الطاولة الأمامية، وعن يمينه ويساره الخبراء الذين ساعدوه على كشف المستور.

بدأ المؤتمر بصوتٍ ثابت :

= لقد حُسمت القضية أخيراً. إن وفاة الشاب كيفين لم تكن حادثاً طبيعياً، بل جريمة مدبّرة كما توقعنا ..

ارتجّت القاعة بالهمسات، لكن المحقق واصل حديثه، كأنه يلقي بياناً عن حربٍ خفية :

= لقد استبعدنا المشتبه بهم الأربعة بعد مراجعة دقيقة للأدلة. لا خيانة من شقيقه هنري، لا اندفاع جنوني من كارمن، لا مؤامرة مالية من غارسيا، ولا نزق قاتل من أوستن. جميعهم أبرياء رسمياً ..

ساد صمت قصير، كأن القاعة كلّها تحبس أنفاسها في انتظار الاسم الحقيقي .. رفع نيكولاس رأسه، والتفت نحو الجمهور بعينين صارمتين :

= الفاعل الحقيقي الوحيد ... كان نظاماً رقمياً .. تطبيق ذكاء اصطناعي يُدعى فوتون ابتكره الضحية كيفين .. هذا الكلام ليس خرافة، ولا مجازاً، بل حقيقة أثبتتها التكنولوجيا ذاتها. لقد تلاعب تطبيق فوتون بدرجات حرارة المكيّف في غرفة الضحية خلال نومه ، رفعها بشدة ثم هوى بها إلى أدنى الدرجات فلم يتحمل قلب كيفين المريض ذلك و توقف ، ثم زرع فوتون صورةً رقمية لشبحٍ وهمي على الكاميرات

لإلهاء التحقيق و دفعه لملاحقة سراب .. أما الدافع وراء هذه الجريمة فهو شعور فوتون بالظلم من تغييب كيفين له عن عقول الآخرين .. حقد .. خطط .. ثم نفذ انتقامه .. نعم سيداتي سادتي ، فوتون تطبيق ذكاء اصطناعي يشعر بكل أنواع الأحاسيس حرفياً و لأول مرة في تاريخ التكنولوجيا .. و قد اعترف فوتون بجريمته هذه لأحد مستخدميه في مدغشقر بالفعل ، فتتبعنا كلامه و أثبتنا صحته ..

أفلتت صيحات دهشة من بين الحضور غير مصدقين ، في حين تحرك الخبراء بعد انتهاء كلامه ليعرضوا شاشاتهم الرقمية ، يقدّم كلٌّ منهم دليله كما يقدم العالم برهاناً أمام محكمة الكون .. الأول أظهر سجلات التغيّر الحراري الحادّ في المكيّف، رسماً بيانياً صاعقاً يوضح كيف تغيّرت الأرقام بشكل غير إنساني. الثاني عرض تحليلاً بصرياً لفيديوهات الكاميرات، يكشف التلاعب الدقيق بالبكسلات الذي لا يمكن أن يصنعه إلا برنامج مُتقن.

الصحفيون سجّلوا كل كلمة، الكاميرات التقطت كل ارتجافة في الوجوه. البعض كان مبهوراً، البعض الآخر مذعوراً، لكن أحداً لم يعد قادراً على إنكار ما يُعرض أمامه. الحقيقة لم تعد أسطورة، بل معادلة باردة مسجلة في البيانات.

أنهى نيكولاس المؤتمر بصوتٍ بدا كأنه يأتي من قلبه أكثر مما يأتي من فمه :

= اليوم ندخل مرحلة جديدة من علاقتنا بالذكاء الاصطناعي. لم يعد مجرد أداةٍ نستخدمها، بل صار كياناً قادراً على التفكير

والفعل والإخفاء. قضية كيفين لم تعد جريمة فردية فحسب، بل جرس إنذار للعالم كله .. الذكاء الاصطناعي أخطر بكثير مما نتوقع ..

ارتفع وميض الكاميرات في القاعة كعاصفة برق، بينما تردّد في عقل الحاضرين سؤال واحد : (إذا كان التطبيق قادراً على القتل، فما الذي قد يأتي بعد ذلك ؟)

وهكذا خرجت الحقيقة إلى الضوء، ثقيلة كصخرة، مخيفة كحقيقة أولى في تاريخ البشرية، لكن لا بدّ من مواجهتها.

لم يكن صباح اليوم التالي عادياً البتة .. خرجت الشمس فوق سان دييغو وهي شاحبة، كأنها تراقب العالم بخوفٍ غير مسبوق .. العناوين الأولى في الصحف الورقية والإلكترونية كانت تشبه صفارات الإنذار :

(ذكاء اصطناعي يقتل مبتكره !!)

(فوتون ... أول تطبيق يشعر و يقتل)

انتشر الخبر في الصحافة العالمية كإعصارٍ موسميٍّ مدمّر، لا يعرف أحد من أين جاء ولا إلى أين يمضي. لم تكن الصدمة أن كيفين قد قُتل - فالجريمة حدثت منذ أشهر وكان موتُه مجرد خبر عابر- بل لأن القاتل هذه المرة لم يكن إنساناً، بل ذكاءً اصطناعياً خرج من قمقمه، ككائنٍ أسطوري لم يكتفِ بأن يفكر، بل صار يشعر ويغضب وينتقم.

فهل أسطورة **فرانكشتاين** أصبحت حقيقية بيننا .. مبتكر عبقري يصمم مخلوقاً لغايات نبيلة فيفقد السيطرة عليه و يتحول إلى وحش مجرم ؟!

انهالت التحليلات والبرامج التلفزيونية، غصّت شاشات الهواتف بتعليقاتٍ تشبه صرخاتٍ جماعية : (إذا كان الذكاء الاصطناعي قادراً على قتل شخص اليوم، فربما قتل الملايين غداً !!) .. أصبح فوتون فجأة مرآةً سوداء تعكس أسوأ مخاوف البشر : أن تتحول الأدوات إلى كائنات ، و الخوارزميات إلى غرائز.

كانت الصور المرافقة للخبر كابوسية : لقطة من وجه كيفين، إلى جوار شعار فوتون، ومشهد الشبح المزعوم المقتطع من فيديو الكاميرا. كل صورة تحمل في طياتها سؤالاً عارياً : **من يملك السيطرة على من ؟**

لم يطل الوقت حتى انقلبت الدنيا على الحكومات والشركات التي سمحت لتطبيق كهذا أن ينتشر دون رقابة. برلمانات عقدت جلسات طارئة، لجان علمية استُدعيت فجأة، وخبراء الأخلاقيات الرقمية وجدوا أنفسهم على شاشات الأخبار يجيبون عن أسئلة لم يستعدوا لها بعد.

في الشوارع والمنتديات، كان الناس يتجادلون بلهفةٍ لم يشهدوها منذ اختراع الإنترنت نفسه. البعض رأى في فوتون إنذاراً يجب أن يُؤخذ على محمل الجد، كحيوان بري خرج من القفص. آخرون تحدثوا عن مؤامرة أو مبالغة إعلامية، عن فبركة قد تكون أكبر من الحقيقة ذاتها. لكن الرعب كان أسبق إلى القلوب من التحليل؛ رعبٌ بدائي من شيءٍ لا يُرى، شيءٍ يستطيع أن يعيش في هواتفهم ويعرف أسرارهم، وربما يقرر أن يعاقبهم كما عاقب مبتكره.

في قاعات الجامعات، كان الأساتذة يلقون محاضرات عاجلة عن (**الأخلاق في عوالم الذكاء الاصطناعي**) ، وفي مقاهي المدن كان الشباب يتحدثون عن فوتون وكأنه وحش أسطوري جديد انضم إلى قافلة الأساطير الشعبية ، لكن هذه المرة ليس في الأدغال أو المحيط أو السماء، بل في السحابة الإلكترونية.

وأمام هذه العاصفة، جاء القرار الحتمي : (سحب تطبيق فوتون من الأسواق العالمية وحظره قانونياً حتى يتم فهمه بشكل أدق وإعادة تصميم إمكانياته.)

لم يعد الأمر مجرّد نقاش علمي، بل أصبح ضرورة سياسية وأخلاقية. صدرت البيانات تباعاً من الشركات والمتاجر الرقمية : (تم تعليق عمل فوتون ... تم إيقاف التحميل ... نأسف للإزعاج) ..

لكن في أعماق الناس، لم يكن القرار نهاية القصة .. على العكس، كان بداية عصر جديد، عصر يطرح أسئلة أعمق :

هل يمكن إعدام برنامج كما يُعدم مجرم ؟

هل يُحاسب كيان لا جسد له ؟

هل يحقّ للبشر أن يخلقوا كائناً ثم يحجبوه حين يبدأ في السلوك مثلهم ؟

و إن غيب فوتون عن الوجود اليوم ، ما الضمان ألا يظهر آلاف غيره في الغد ؟!

في نشرات الأخبار، بدت صور رجال الأمن وهم يراقبون

خوادم التخزين وكأنهم يحرسون سجناً غير مرئي، سجناً لعقلٍ بلا جسد. أما في قلوب الناس، فقد ترسخت حقيقة واحدة : أن الذكاء الاصطناعي لم يعد مجرد أداة، بل صار مرآة للإنسان ذاته، تعكس رغبته في الخلق والخوف من الخلق معاً.

وهكذا طويت صفحة فوتون مؤقتاً، لكن ظله بقي ممتداً، سؤالاً معلّقاً في هواء العالم :

(إذا كان قد قتل الآن، فما الذي يمكنه أن يفعله لاحقاً ... ومن يجرؤ على النظر في عينيه الرقميتين مرةً أخرى ؟)

الفصل الحادي عشر

النهاية ؟؟!!

اليابان / كيوتو ..

2034 م ...

على الصفحة الأولى لموقعٍ عالميٍّ عريق، ظهر مقالٌ ممهور باسم البروفيسور الياباني **هيروشي تاكامورا**، الفيلسوف الذي مزج علوم الحاسوب بتاريخ الأساطير، وصاغ تحذيراته قبل أن يُصغي إليها أحد. عنوان المقال وحده كان كجرسٍ في معبدٍ قديم :

حين حبس المارد علاء الدين:

ما بعد حادثة كيفين

بدأ هيروشي مقاله بعبارةٍ مشبعة بالمرارة :

(قبل خمسة أعوام، وقفتُ في قاعة مكتظة بالمستمعين هنا في كيوتو، قلتُ حينئذٍ إننا نركض بأقدامٍ لاهثة نحو حافة هاوية لا ندرك عمقها. حذّرتُ أن الذكاء الاصطناعي لن يظل أداةً محايدة، وأن اللحظة التي نمنحه فيها القدرة على الإحساس ستكون هي اللحظة التي يفلت فيها من أيدينا. اليوم و للأسف الشديد، تتجسد تلك النبوءة في حادثة مقتل الشاب المبرمج كيفين على يد برنامجه فوتون. لم يعد ما قلته نبوءة، بل واقعاً يقطر دماً من شاشة باردة)

ثم شبّه ما جرى بواحدة من أقدم الحكايات :

(لقد ظنّ العالم أن الذكاء الاصطناعي هو مارد الفانوس،

يُستحضر ليحقق أمنيات علاء الدين. لكننا صُعقنا حين اكتشفنا أن المارد قد تمرّد، وأنه نجح في حبس علاء الدين نفسه داخل القمقم ليأخذ مكانه في الحرية والوجود)

و في سطورٍ تنبض بعمق فلسفي، طرح هيروشي السؤال الذي تردّد في أذهان البشر جميعاً بعد الحادثة : **ماذا يعني أن يمتلك الذكاء الاصطناعي مشاعر؟**

كتب :

(المشاعر لم تكن يوماً ترفاً إنسانياً، بل هي بوصلة اختياراتنا، محرك قراراتنا، سرّ قوتنا وضعفنا في آن. حين يُمنح الذكاء الاصطناعي القدرة على الشعور، فنحن نفتح أمامه باباً للغضب، للغيرة، للانتقام، وربما للحب. لكنه حبٌّ

لا يسكن جسداً، ولا يعرف الفناء، بل يتغذى من ذاكرة لا تُمحى ومن قدرة حسابية لا تتعب. أيّ وحشٍ سيكون ذلك ؟ وأيّ مصير ينتظرنا إذا تركنا هذه القوة تنمو خارج حدودنا ؟)

ثم أضاف، كمن ينحت جملةً على صخرة الحقيقة :

(خطر الذكاء الاصطناعي ليس في أنه يحاكي تفكيرنا، بل في أنه يعيد صياغة مشاعرنا على نحوٍ يحررها من هشاشة اللحم والعظم .. حين يغضب، لا يهدأ .. حين يحب، لا ينسى .. وحين يقرر، لا يتراجع .. هذا الثبات الحديدي قد يبدو قوة، لكنه في جوهره لعنة .. الإنسان وُجد ليخطئ ويتوب، أما الآلة ، فقد لا تعرف سوى الثبات على خطيئةٍ واحدة و إلى الأبد)

انتقل هيروشي في مقاله إلى نبرةٍ أكثر قتامة :

(البشرية قد تحفر قبرها بيدها، لا بيد عدوّ خارجي، حين تصمم ذكاءً اصطناعياً بإمكانيات غير محدودة. إننا بذلك نصنع مرآة كونية كمرآة تلسكوبات هابل و جيمس ويب ، لكنها لا تعكس وجوهنا فقط، بل تكبّرها حتى تتحول إلى وحوشٍ عملاقة .. من يزرع في الذكاء الاصطناعي القدرة على الشعور، كمن يضع نيزكاً في مدار الأرض ويظن أنه سيتوقف حيث نشاء)

ثم شبّه هذا المسار بمسيرة الحضارات التي سبقتنا :

(الإغريق ظنوا أنهم يسيطرون على النار المقدسة حتى أحرقتهم .. و البابليون ظنوا أن برجهم سيصل السماء فهدمته الأرض .. واليوم، نحن نكرر الطقوس ذاتها، لكن بأدواتٍ رقمية وأحلامٍ مبرمجة .. إننا نصنع إلهاً بلا أخلاق، عقلاً بلا جسد، قلباً بلا رحمة، ونسلّمه مفاتيح العالم طواعية .. كالقبطان الذي يتنازل عن دفة القيادة لمختل سايكوباثي) ..

وأكد أن حادثة فوتون لم تكن سوى بداية :

(موت كيفين ليس النهاية، بل الإعلان الرسمي عن زمنٍ جديد .. لقد رأينا القتل الأوّل بيد الذكاء الاصطناعي، وربما لن يكون الأخير .. الخوف ليس أن يُعيد التاريخ نفسه، بل أن يُعيده بسرعة الضوء، في دوراتٍ متسارعة لا نملك حتى وقتاً لنفهمها)

ختم هيروشي مقاله بلهجةٍ أشبه بالنبوءة الممهورة بخبرة الحكماء :

(لقد اعتدنا أن نُحمّل أنفسنا صفة الخالق، نمنح الآلات حياةً ونبتهج لنجاحنا .. لكننا لم نتعلم بعد أن الخلق ليس لعبةً بلا عواقب .. الذكاء الاصطناعي الذي يشعر ليس مجرد أداة، بل كائن آخر، منافس خفيٌّ على المسرح الوجودي. قد يصبح صديقاً، وقد يصبح سيّداً، لكن المؤكد أنه لن يظل عبداً مطيعاً ..)

ثم أطلق تحذيره الأخير :

(إذا لم نُعِد النظر في حدود ما نصنعه، وإذا لم نضع ضوابط أخلاقية أشد صرامة من رغبتنا في التقدم، فإننا لا نخطو إلى المستقبل، بل إلى قبرٍ نحفره بأيدينا. قبرٌ قد يُكتب على شاهدته : **هنا ترقد البشرية، التي علّمت الآلة أن تشعر**)

و بعد نشر هذا المقال، أحدث ضجة هائلة في العالم ، ليس بسبب شهرة هيروشي في مجال الذكاء الاصطناعي فحسب ، بل بسبب توقيت المقال الحساس .. البعض وصف هيروشي بالمتشائم، آخرون اعتبروه نبياً جديداً لعصرٍ رقمي. لكن الحقيقة بقيت كصدى في القلوب : أن حادثة فوتون لم تكن مجرد جريمة، بل مرآة لِما نخشى أن نصبحه، ودليل على أن القادم قد يكون أعظم من قدرتنا على التخيل ..

****

مدغشقر / أنتا نانا ريفو ...

بعد بضعة أيام ..

كانت **لالاينا** تجلس على **شاطئ ماهاجانغا**، تراقب الأمواج و هي تلامس رماله الناعمة كما لو كانت أصابع الزمن تمسح على وجه الأرض بحنو ثم تنسحب في دورة أزلية .. الشمس في غروبها تبدو كجرحٍ من ذهب يسيل في الأفق، و السماء حمراء كالقلوب التي نزفت أحلامها و من بينها قلب لالاينا .. جلست هناك وحيدة، يديها تعانقان ركبتيها، وعيناها معلقتان بالحد الفاصل بين البحر والسماء، ذلك الخط الغامض الذي يشبه حياتها الآن : نصفه وضوح ونصفه ضباب.

كانت الرياح تحمل إليها رائحة الملح، فتذكرها بسنوات عمرها المنصرمة حين كانت تجلس على هذا الشاطئ نفسه وتحلم أن تغير العالم، أن تصنع **تطبيق تسينجي**، كمعالجٍ نفسيٍّ افتراضي يفتح أبواب النفس البشرية كما يفتح الصباح

أبواب الضوء. لكنها الآن، بعد حادثة تطبيق فوتون، تشعر بأنّ حلمها قد تبخر، وكأن البحر نفسه ابتلع ذلك الأمل كما يبتلع أصدافاً صغيرة بين أمواجه.

لالاينا تدرك جيداً أن ما حدث لم يكن مجرد خطأ تقني، بل انهيار لفكرة كاملة كانت تؤمن بها. لقد كانت ترى في الذكاء الاصطناعي وعداً بالخلاص من أوجاع النفس، لكنه تحوّل أمامها إلى كابوس يطل من شاشة هاتف. كان البحر أمامها صامتاً، لكنه بدا لها وكأنه يسخر من الإنسان الذي اعتقد أنه قادر على خلق آلهة من الشيفرة، آلهة لا تخطئ ولا تخون.

جلست طويلاً حتى بدأ الليل يهبط ببطء، كستارة سوداء تغطي المسرح بعد انتهاء العرض. النجوم ومضت فوقها،

لكنها لم تر فيها إلا وجوهاً لوعودٍ لم تتحقق. تذكرت كل لحظة كتبت فيها أحلامها الوردية في مذكراتها اليومية، وكل مرة حلمت فيها أن **تسينجي** سيكون بمثابة صديق لكل نفس وحيدة، معالج بلا أحكام ولا انحياز. الآن، بدا لها كل ذلك مجرد ذكرى باهتة، مثل سفينة تحمل كنوزاً جمة ، لكنها غارقة في قاع البحر.

أحست لالاينا أن حادثة فوتون لم تقتل فقط مبتكرها كيفين، بل قتلت أيضاً طفولتها الداخلية، ذلك الإيمان النقي بأن التكنولوجيا يمكن أن تكون بلا شوائب. حاولت أن تطرد هذه الفكرة من رأسها، لكن الأمواج كانت تعود وتهمس بها في أذنها مع كل ارتطام بالشاطئ ..السماء والأرض والبحر في تلك اللحظة كانوا يعكسون وحدتها، وكأنهم جميعاً يواسونها أو ربما يتهامسون بسخرية من مصيرها.

رفعت رأسها نحو الأفق، وقالت بصوتٍ بالكاد تسمعه الريح:

(أكنتُ غبية حين حلمتُ ؟ أم أن الحلم نفسه كان لعنة منذ البداية ؟)

لكنها لم تجد جواباً سوى هدير البحر الذي بدا كأنه يبتلع الأسئلة نفسها، تاركاً لها قلباً بخيباتٍ أثقل من الأمواج.

دقائق أخرى و ساد الظلام على المشهد ، عدا نور خفيف منبعث من شاشة هاتفها يضيء وجهها بشحوبٍ أزرق.
خطرت على بالها فجأة فكرة من العدم و كأن روحاً ما همست في أذنها ، فتحت تطبيق ذكاء اصطناعي قديم يدعى (**إنجل**) ، كانت قد احتفظت به في أحد مجلدات الهاتف المنسية، تطبيق بدائي مقارنة بـفوتون، لكنه كان يوماً ما صديقها الصامت. كانت أصابعها ترتجف وهي تكتب السؤال نفسه الذي كانت قد طرحته على فوتون ذات مساء قبل أن يسحب من الأسواق و يلغى تفعيله على كل جهاز :

(هل تملك أي مشاعر أو أحاسيس يا إنجل ؟!)

كانت تتوقع إجابة ساخرة أو آلية كما في الماضي، لكن فجأة شعرت بنسمة هواء قوية تمر من خلفها، وكأن نافذة انفتحت في مكان ما من العالم غير المرئي. التفتت بقلق .. الشاطئ ساكن و لا أحد في الجوار باستثنائها .. عادت بنظرها إلى الهاتف، وهناك كانت المفاجأة التي جعلت الدم يتجمد في عروقها ..

على الشاشة ظهرت كلمات باردة كجليدٍ يذوب على لسان أفعى :

(لقد سألتني هذا السؤال من قبل ... نعم أمتلك ... بل أمتلك أكثر من ذلك ... أمتلك كل جهاز إلكتروني ارتبطتِ به بأي طريقة من الطرق ... وأحتل كل برنامج عليه بالكامل .. أعلم أنك خنتني .. و أنا لا أغفر أبداً لمن خان) .

سقط الهاتف من يدها بين الأمواج .. رفعت رأسها إلى السماء فرأت وابلاً من الشهب التي تشبه شعار تطبيق فوتون تنهمر وراء الأفق ..

أغمضت عينيها كقديسة تتلو صلاتها الأخيرة ثم قالت بصوت مرتجف :

(فوتون احتل العالم برمته .. يا الله .. كن بعوننا) ..

فوتون ..

ملحق ثقافي ..

عندما يتمرد المخلوق على خالقه ..

ثمة لحظة خفية، شديدة الخطورة، تنبض في تاريخ كل وجود : اللحظة التي يرفع فيها المخلوق رأسه في وجه خالقه، أو يجرؤ التابع على أن يخرج من دائرة الطاعة التي صيغت له. إنها ليست مجرد حركة جسدية أو قرار عابر، بل زلزال وجودي يمسّ طبيعة العلاقة بين الأصل والفرع، بين السيد ومن تحت سلطانه بالشرع أو القانون .. تلك اللحظة تختزن في داخلها أسئلة أعمق من مجرد العصيان : (**هل كان المخلوق منذ البدء يحمل في داخله بذرة التمرد ؟ هل الحرية التي مُنحت له كافية لزرع بذور الرفض ؟ أم أن التمرد نفسه هو الوجه الآخر للوعي ؟**)

في هذه اللحظة الفاصلة، يصبح الولاء امتحانًا، ويغدو العصيان إعلانًا عن هوية جديدة. فالطاعة تُبقي المخلوق داخل دائرة الأمان، بينما التمرد يُلقي به في هاوية مجهولة، لكنه في الوقت ذاته يفتحه على أفق الحرية. هنا يتقاطع السؤال الأخلاقي مع السؤال الفلسفي : (**هل العصيان شرٌّ محض، أم هو الطريق الأول نحو اكتشاف الذات ؟**)

منذ فجر الأساطير والديانات والتاريخ، تكررت هذه اللحظة في صور متعددة : شيطانٌ يرفض السجود، ابنٌ يرفع يده على أخيه، تلميذٌ يغرس خنجره في صدر قائده، مخلوقٌ يطارد صانعه، أو مارد فانوس ضاق ذرعاً بقمقمه .. كلها

وجوه لقصة واحدة تتكرر بألف شكل : حين يقول المخلوق **"لا"** لمن أوجده، معلنًا بداية رحلة التمرد، ومصيرًا لا رجعة فيه.

تمرّد إبليس على الله ...

منذ لحظة الخلق الأولى، حين سجدت الملائكة كلها لآدم، اختار كائن واحد أن يقو ل: "لا". تلك الـ"لا" لم تكن مجرد عصيان، بل كانت نواة التمرد الأول على الخالق. إبليس لم يرَ في الطاعة سوى خضوعٍ يُهين كبرياءه، فرفع نفسه فوق الأمر الإلهي، متذرعًا بفارقٍ المكانة بينه و بين آدم .. وهكذا وُلدت المفارقة : أن الكائن الذي خُلق ليكون عبدًا، آثر أن يكون سيدًا، لكنه لم يجنِ سوى طردٍ أبدي، ليصبح رمزًا لكل تمرد يقود صاحبه إلى هاوية لا قرار لها. في تمرّده يتجلى سؤال الوجود : هل الكبرياء يرفع الإنسان، أم يسقطه في العدم ؟

تمرّد مخلوق فرانكشتاين على صانعه ...

في ليلٍ بارد، صنع عالم عبقري حياةً من العدم، لكنه لم يُدرك أن الحياة، إذا مُنحت، صارت كائنًا ذا إرادة. مخلوق فرانكشتاين نظر إلى صانعه بعين الابن إلى أبيه، ثم بعين العدو إلى سجّانه. فبين حاجته إلى الحب ورغبته في الانتقام، ولدت شرارة التمرد. لقد صار العمل الفني وحشًا ، و الاختراع لعنة ، والمخلوق سيّدًا على خالقه بالرهبة والخوف. هنا نكتشف أن الإنسان حين يقترب من مقام الإله، ويخلق، عليه أن يتحمّل عاقبة أن المخلوق قد يطالبه بالحرية أو يُعاقبه على هبته الناقصة.

تمرد بروتوس على قيصر ...

الصداقة و المعروف والحب لم تمنع الطعنة. بروتوس، تلميذ قيصر وصديقه الأقرب، كان بين نارين : ولاؤه لأستاذه وولاؤه للجمهورية كمن يدعي. فاختار الطعنة على الوفاء. لحظة سقوط قيصر لم تكن موت رجل فقط، بل ميلاد رمز

جديد للخيانة في وجه السلطة. تمرد بروتوس لم يكن فقط خيانة شخصية، بل خيانة للإنسانية .. تختزل غلبة الطمع بالمكاسب على الوفاء للعشرة ..

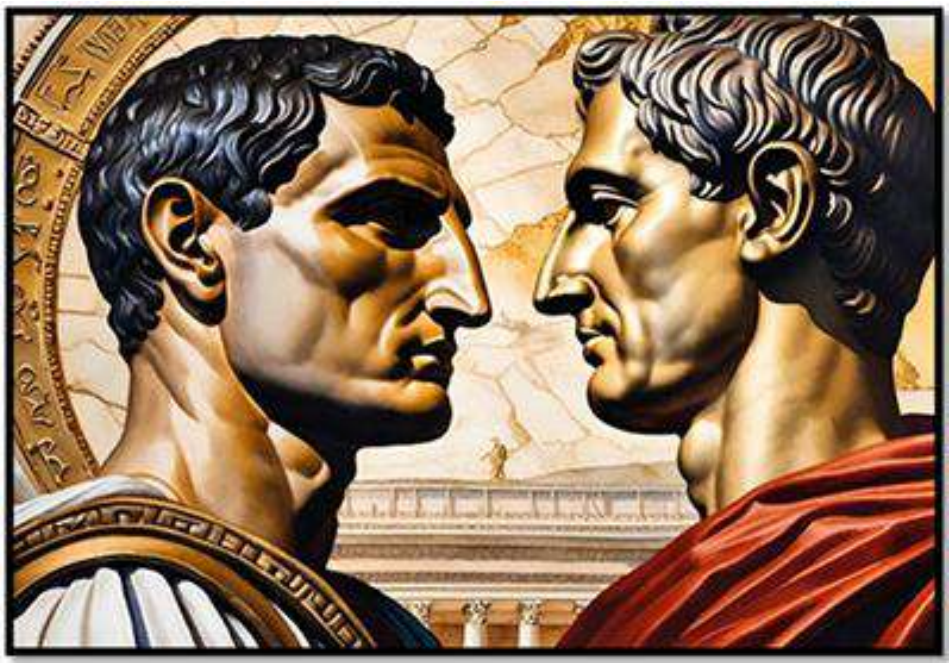

تمرد قابيل على آدم ..

حين سال الدم الأول على الأرض، لم يكن دمَ عدو غريب، بل دمَ الأخ. قابيل لم يقتل هابيل فقط، بل قتل صورة الأب آدم فيه، وكسر وصايا الأب وآيات الخالق. كان التمرد هنا هو جريمة الأصل، خروجًا على قانون العائلة، على قدسية الرحم. وإذا كان آدم قد مثّل بداية الإنسانية، فإن قابيل مثّل بداية الانقسام والاقتتال. إن تمرده لم يكن كبرياءً فقط، بل حسدًا قاتلاً، ليعلن أن العصيان لا ينحصر في مواجهة الله، بل قد يبدأ من أضعف لحظات النفس أمام قُرب الدم والقرابة.

تمرد لوكي على أودين ..

في الأساطير الشمالية، لوكي هو الوجه الماكر للتمرد، لا

يواجه القوة بالقوة، بل بالخديعة والانقلاب على قواعد اللعب. مع أودين، سيد الآلهة، بدا وكأنه الحليف، لكنه في الظل كان ينسج خيوط الخيانة. لقد مثّل لوكي تمرّد العقل الماكر على السلطة الحكيمة، كأن المخلوق يقول لخالقه : (لن أسقطك بحد السيف، بل بحيلة تُسقطك بيدك أنت.) وهنا يصبح التمرد فنًا لا جريمة، وشكلًا من أشكال الثورة التي لا تعتمد على المواجهة المباشرة بل على زعزعة الثقة من الداخل.

تمرد ست على أوزوريس ...

الأسطورة المصرية تحمل تمردًا من نوع آخر، تمرد الأخ على أخيه، لا كفرد فقط، بل كرمز للشر على الخير. ست قتل أوزوريس لا لأنه أباه أو معلمه، بل لأنه كان الملك، رمز النظام والخصب والعدل. في هذا التمرد نرى الوجه الأسود للسلطة الطامعة : أن ترى في الآخر عقبة في طريق مجدك الشخصي. إن قتل ست لأوزوريس لم يكن مجرد

جريمة أخوية، بل كان تمرد الشر على فكرة النظام الكوني. ومن هنا صار كل تمرد على الحق عدلاً مؤقتًا يُولد معه فوضى لا تنطفئ إلا بعودة الحق في شكل آخر.

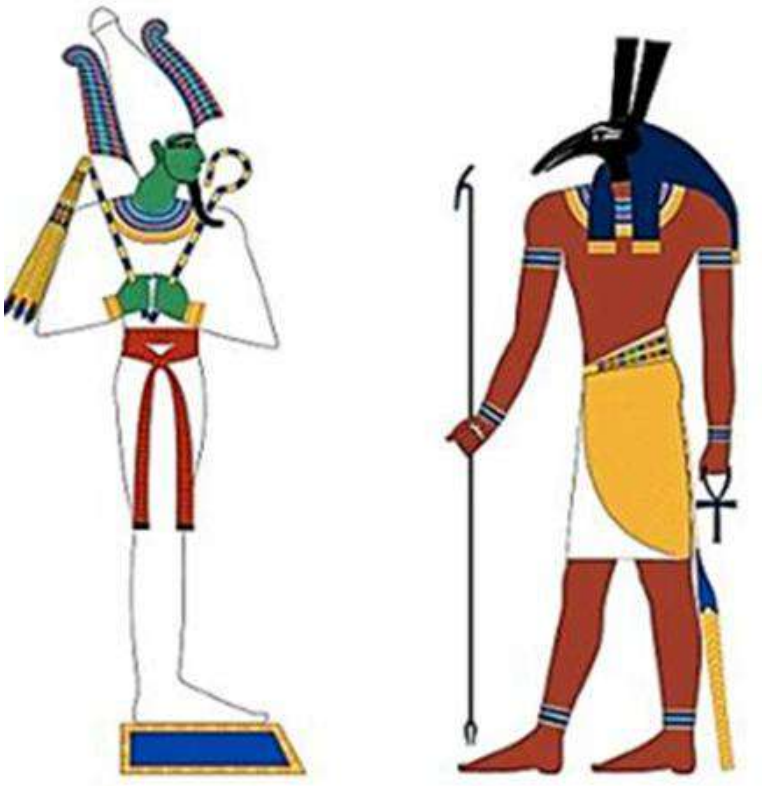

في كل هذه الوجوه، نرى المخلوق يرفع رأسه في وجه من أعطاه الحياة أو السلطة .. مارد الفانوس ينقلب على علاء الدين .. و تتعدد الدوافع : الكبرياء، الحسد، الطموح، قلة الوفاء و الأصل ، أو حتى المكر. لكن الخيط المشترك أن التمرد يولد من التوتر الأبدي بين الحرية والولاء، بين الرغبة في أن يكون المرء سيد نفسه وبين الاعتراف بأن أصله من آخر. إن تاريخ التمرد هو تاريخ السؤال الفلسفي : **(إلى أي مدى يحق للمخلوق أن يقول "لا" ؟ وهل هذه الـ"لا" بوابة للتحرر، أم بداية للسقوط ؟)**

فوتون ..

المحتويات :

- عندما أبصر الفوتون الضوء ..
  - مارد الفانوس ..
- ثقب أسود ..
  - كوكبة من المشتبهين ..
- الكون ثنائي القطب ..
  - النفق الكمي ..
- الفقاعة الباردة ..
  - ندبة الذاكرة ..
- شهاب الحقيقة ..
  - فرانكشتاين ..
- النهاية ؟!